Henri Lichtenberger

هنري ليشتانبرجر



الفيلسوف



THE PHILOSOPHER THAT TURNED THE WORLD INTO AN IDEA



ترجمة: خليل الهنداوي



■ اسم الكتاب: نيتشه الفيلسوف

■ المــؤلــف: هنري ليشتانبرجر

■ ترجمة: خليل الهنداوي

■ تدقيق وتنقيح: تفريد شومان

■ الطبعة الأولى 2022 ©

ISBN: 978-9953120-70-6

■ الإخراج الفني: TRIGRAPHICS

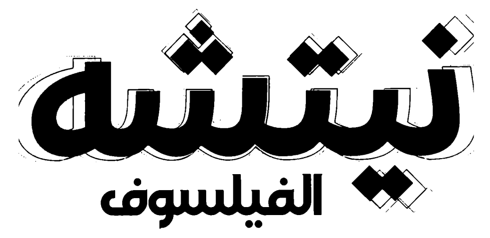


لبنان | بيروت | [illegible] | الطابق الخامس
العراق | بغداد | شارع المتنبي | [illegible] | الطابق الأول
00961 01 740 495 | 00961 78 938 980
www.nousous.com nousous.lr@outlook.com

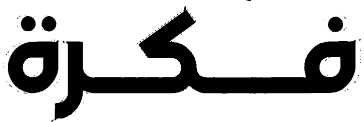
Henri Lichtenberger

هنري ليشتانبرجر

NIETZSCHE'S



الذي حول العالم الى



THE PHILOSOPHER THAT TURNED THE WORLD INTO AN IDEA



| ترجمة: خليل الهنداوي



المحتويات

لماذا آثرت نيتشه؟

حقًّا أنّ بيني وبين نيتشه أسبابًا لا أظنّ انقطاعها يسيرًا، وقد اختلفت إليه ليالي كثيرة، وليس بيني وبينه فاصل؛ أبثّه من روحي، ويبثّني من روحه، فنتألّم معًا من الحياة، ونرقص لها ابتهاجًا. ولا أدري علّة هذا التّرابط؟! ومن ذا الذي يستطيع أن يحفظ على التّحقيق كلّ سبب يربط بينه وبين مفكّر ما؟ أليست هنالك، أسباب مختلفة قد تتآلف وقد تتخالف، فتمزج هذا المفكّر مع عقلك وقلبك، أو لا تزيدك منه إلا نفورًا؟ وما عسى يكون سرّ تعلّقي بنيتشه إلا سرّ تعلّقي بالحياة؟ كانت الحياة عندي ظلمة حالكة فغمرها نيتشه بفجره. كانت الحياة شكًّا مرًّا، وقلقًا مستحوذًا عليّ، فبدّل شكّي أمانًا، وقلقي عزيمة لا تتقلقل. كان سفيني مضطربًا في خوض لجج الحياة، تهمّ يد الضّلال بافتراسه، فاستنقذه نيتشه، وساقه إلى منارة الحياة، ذلك فضل نيتشه عليّ؛ وأعظِم بهذا الفضل.

كيف يريد أولئك الذين لاموني على انكبابي على نيتشه أن أنصرف عنه؟ وإنّي لواجد فيه علامة من العلامات الواضحة التي تنصبها الحياة للضّالين

عن مناهجها. فنيتشه هو علامة فيض الحياة المتفجّرة، والارادة الصّارمة، ولعلّ أولئك السّقماء الذين أتوه فرّوا من مباضعه القاسية، وتعاليمه العنيفة، لأنّهم يريدون علاجًا يبعث في أعضائهم المسلولة الدّفء والسّكينة، وهو إنّما يريد أعضاء تبارك الحياة بالعزم والحركة. إنّه قد أحرق العلاجات المخدّرة للأوجاع قبل أن يقدموا، فإذا كنت صابرًا على احتمال قسوته فأقبل عليه.

إنّ نيتشه لا يفتقر الى جثث خالية من الاحساس، يحملها على ظهره، وإنّما هو يريد رفاق أحياء هدّامين مثله، قد أدرعوا الارادة، وصافحوا الألم رفيقًا لا سيّدًا يقتحمون بإرادتهم وصرامتهم كلّ شيء كالسّيل الجارف، لا يصدّهم عن غرضهم صاد، ولا يوقف سيرهم حاجز، يثبون فوق القمم وثبًا لا يزحفون كالحشرات زحفًا وفي نفوسهم عقيدة تفيض حماسة وقوّة، يفرضونها على الزّمان، ولا يجد الزّمان إلى إضعافها سبيلاً. هؤلاء الرّفاق الأشدّاء يستطيعون أن يمشوا مع نيتشه، ويمجّدوا الحياة في كلّ أدوارها، ويحلّقوا فوق آلام الحياة وأفراحها.

كيف لا نتفقد هؤلاء الرّفاق في مجتمع مريض لا نرى فيه إلاّ قطعانًا هائمة على وجوهها من النّاس، ورعاة غافلين، هم صفو السّمر، وأوامر مقطوعة مقدّسة، وتقاليد جامدة يتغنّى بها القوم حين يريدون الرّقص والغناء، وشبابًا مائعين تناموا رجولتهم الكاملة، ومثقّفين «شكليًّا» أهملوا رسالته، كأنّ تلك الرّاحة الطّويلة قد أورثت أعضاءنا الشّلل، فإذا مسّتها الحياة لم تقدر على الحركة، كما أورثت تفكيرنا الخدر والجمود، حتّى أصبح تفكيرنا رياء، والتّظاهر بالتّقاليد رياء، وهل كان الرّياء إلا ثوبًا من أثواب

الضّعف والعجز والكفر بالنّفس، ترتديه أمّة رضيت لنفسها أن تجرجر أيّامها نزولاً بدلاً من أن تصعد وترقى.

إنّ إغفال علماء الاجتماع عندنا لهذه الظّاهرة الخلقيّة إغفال فيه جناية لا تغتفر. يجلس مفكّرنا في جماعة، فيفصل لفكره عشرين وجهًا، يقبل عليهم بوجه، ويعرض عنهم ما تبقّى، ويصلّي عابدنا عشرين ركعة، يمنح واحدة لله، ويمنح الباقيات لنفسه. وهكذا غلب الرّياء علينا في كلّ مظاهر تفكيرنا وتقاليدنا، حتّى بات علامة من علاماتنا المميّزة لنا.

هذه هي المظاهر التي غاظت نيتشه يوم أعلن الثّورة على الضّعف والرّياء. فليت شعري من سيغيظ الضّعف والرّياء في مجتمعنا الحاضر، فيعلن الثّورة عليهما، وعلى المرتدّين أرديتهما أن العقل العربي عقل قويّ بنشأته، صادق بعزّته، وهو لا يحتاج إلى من يبثّ فيه معنى القوّة والكرامة لأنّه قائم عليهما. ولكنّ جيلنا الحاضر اعتنق الفكرة العربيّة مجرّدة من معنى القوّة والصّرامة، فتشوّهت بذلك الرّسالة وضاعت معالمها.

كنت أتلو مواعظ «زراداشت» فأحسّ أنّ قوّة جديدة أخذت تطغى على قلبي، وأشعر باضطراب في نفسي جعلني أؤمن بأنّ الحياة لا يعسر عليها أن يخرج منها ألف حياة، ولم لا؟ كنت أسير معه وهو يهدم أنصاب الرّياء، ويضرب التّقاليد بعضها ببعض، فأطرب لشجاعته، وأعجب بنفسي وأسألها: «هل كان باستطاعتك أن تطئي هذه الأرض وحدك لولا هذا النبي؟» ولكنّ طربي لم يكن كاملاً، لأنّني كنت أبغي لمثل هذا النبي الهدّام أن يقيم بيننا ليلة واحدة، تنفذ عينه خلالها إلى قلوبنا الطّافحة غشًّا

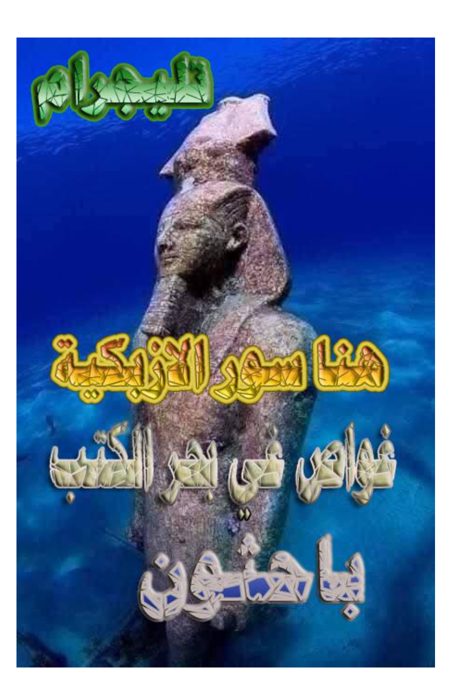
وخداعًـا، وقصورنا ومعابدنا المفعمة كذبًا ورياءً، فينظف هذه القلوب، ويدمّر هذه القصور!

أين أراك يا زراداشت العرب؟ ومتى يكون الموعد؟ لقد اصطلح على إيذائنا كلّ شيء حتّى أنفسنا. تمشي الحياة بنا ونحن ذاهلون، ويستيقظ الفكر في كلّ مكان، ونحن نضرب حوله السّدود، ونقيم له الحدود. نفرّ من الألم لأنّه يضنينا، ونستجدي الفرح من غيرنا استجداءً يتحرّك كلّ شيء حولنا، ونحن لا ترضينا الحركة، ولا تستهوينا اليقظة. نقول بالإنسانيّة ونشفق عليها، وقاتلوها لا يملكون من «إنسانيّتهم» شيئًا، يحسّون آلام غيرهم ولا يحسّون آلامهم ويشدد غيرنا «روح الذّاتية» عندهم ونحن نسعى إلى محوها، كأننا نريد أن نمثّل دور الشّرق الأوّل يوم كان يفيض إنسانيّة على غيره. وقد قتلنا هذا الحب المفرط للغير، وقد قتلنا هذا الزّهد الخامل، تسامى غيرنا فوقنا، فهم يريدون أن يعرفوا أنفسهم بعد أن وجدوها، ونحن تائهون لما نعثر على أنفسنا.

تعال أيها النبي أينما كنت! فهنا كثيرون ممّن يرتقبون أوبتك واحمل مباضعك، وآت بنفسك وقلبك، وايقظ افكارنا، وبثّ فينا الحياة. أعطنا الحياة وخذ منّا فديتها، أتريد منّا أن نتألّم، إننا نتألم ونحتمل الشّقاء في سبيل الحياة، وشدّد شعورنا بالحياة وزدنا أمانة بها. اهدنا إلى أنفسنا وحبّبنا بها، فقد علّمونا أن نمقتها. تعال استأصل جذور الضّعف فينا والذّل، فقد أكلت أنفسنا الأحشاشات. تعال ولا تعطنا شيئًا إلا ما نؤدّي ثمنه، فقد أدركنا أنّ كل ما يعطي ويوهب رحمة يضر آخذه.

تعـالي يـا إرادة القـوّة والصّرامـة، فكثيرون هنـا يرتقبـون وصولك.. والطّريق ممهّد، والغاية دانية القطوف.

خليل الهنداوي



يعدّ «فردريك نيتشه» مثل الفكرة الألمانيّة الجبّارة في تاريخها الحديث كما كان «بسمارك» رجلها الحديدي في السّياسة. فهما، وإن اختلفت نوازعهما وتباينت خطوطهما، ما غرسا إلا بذور القوّة والارادة في شعب تلقّحت دماؤه وأفكاره مصل القوّة والارادة.

هنالك كلمة تسطّرها براعة الفلاسفة والنّقّاد، وتشغل مكان في العصر الحديث. هذه الكلمة هي كلمة «الانحطاط الاجتماعي» وفلاسفة الاجتماع لا يرون في هذا الانحطاط شيئًا سياسيًّا ممكن اصلاح الفاسد فيه، أو اعوجاجًا ممكن تقويمه بل هو داء عضال تأصّل في جسم البشريّة، وجرى في لحمها ودمها، فهو لا يذهب إلا بذهابها، ولا يتلاشى إلا بانقراضها. من هؤلاء الغالين المسرفين في تشاؤمهم «فردريك نيتشه» الذي نازل العالم كلّه وحده، وهدم العقائد والتقاليد مستمدًّا من عقله وقلبه عقائد وتقاليد أسمى منها.



الفصل الأول:

عنصر الشّخصيّة عند نيتشه



إنّ من الجور أن ننظر فيما ترك نيتشه من تعاليمه «كمذهب محدود» لأنّ الرّجل لم يعمل على أن يؤلّف مدرسة فلسفيّة، ولم يكن لمثل عقله الوثّاب أن يقيّد نفسه بقيود ضيّقة، وإنّما هو الثّورة الجارفة التي لا تعرف نظامًا ولا انتظام، ملك عليها الاضطراب في تفجّرها. ويغلب على عقله التّناقض حتّى في الفكرة الواحدة وإنّما الأجدر بنا أن ندرس من فلسفته النّاحية الشّخصيّة أو الذّاتيّة، وهي أبرز نواحي فلسفته جلاء وقوّة، لأنّها بنت طابع خاص، وهوى صادق مستقيم. إنّ فلسفة نيتشه فلسفة تتجلّى فيها «الذاتية» المنقطعة عن الناس: «ماذا يقول لك شعورك؟ يجب أن تكون كما أنت!» ينبغي للإنسان أن يعرف نفسه وجسده وحواسّه، وان يتّجه بحياته كما تريد ذاته وشخصيّته، وان يعتزم من الفرص احسن ما يغتنم، ومن المصادفات ما تحقّق مطامعه ويقرّب غايته. وإن يصحح بقدر ما يستطيع هذه الطّبيعة بالفن، ليتسنّى له أن يظهر ذاته، ويبعث حياته كل يغترف من هذا المذهب محسب غريزته وطبيعته، إذ لا قواعد ولا أساليب محدودة تصنع لكل إنسان نفسه. فمذهب «عدم المساواة بين الناس» هو من مبادئ نيتشه، إذ ينبغي لكلّ إنسان أن يخلق بنفسه حقيقته وهدفه وفضيلته. فما كان صالحًا لواحد قد يكون ضارًّا لآخر، وما كان ضارًّا لواحد قد يكون صالحًا لآخر. وكل ما يستطيع المؤرّخ أن يصنعه هو أن يقصّ تاريخ نفسه، والطّريقة التي اكتشف بها نفسه، والإيمان الذي وجد به راحة نفسه، وإن يكون المثال الذي يقتدي به معاصروه للوصول إلى عوالم أنفسهم. ولكن ليس له بعد هذا كلّه من مذهب أو من طريق، لأنّه لا يودّ أن يكون راعي قطيع خاضع ذليل.

يقول زراداشت لرفاقه الامناء: «إنني وحدي أذهب يا رفاقي، وأنتم وحدكم اذهبوا! أنا أريد ذلك. في الحقيقة أعطيكم هذه النّصيحة: «ابتعدوا عنّي كثيرًا، واعتقوا أنفسكم منّي والخير لكم أن تخجلوا منّي.. أنتم تقولون «أنّكم مؤمنون بي» ولكن ماذا يهمّني إيمانكم يا من آمنتم بي، بل ماذا يهمّني كلّ المؤمنين؟! أنتم لم تبحثوا بعد عن أنفسكم، ولذلك وجدتموني، هكذا يقول المؤمنون كلّهم. ولهذا أرى أنّ كلّ إيمان هو شيء ضئيل حقير. والآن، آمركم بأن تفقدوني لتجدوا أنفسكم. وعندما تكفرون بي أعود إليكم في تلك السّاعة..»..

يتميّز نيتشه من أصحاب المذاهب الفلسفيّة بأنّه لا يخاطب العقل وحده كما يفعلون، بل يخاطب الإنسان بجملته عقلاً وجسدًا. ما التّفكير عنده والعاطفة إلا أهواء تعبث بها قوّة خفيّة كامنة توجّهها كما تشاء إلى أين تشاء. إنّ وراء أهوائك وعواطفك سيّدة قادرة، وعاقلاً مجهولاً يسمّى «الذات» يسكن جسدك، وإنّما هو جسدك، فالجسد، بما يضمّ من أعضاء، وما يحتوي على إرادة القوّة، هو ما يدعوه نيتشه «العقل الكبير في الإنسان» وأنّ العقل الحقيقي وحده ناقص، سريع العطب، تستعين به الذّات على بسط قوّتها ونفوذها. فإذا أراد إنسان أن يؤثّر في آخر فبهذه الذّات الخفيّة وحدها يمكنه التّأثير، وكلّ شيء ما عداها باطل. وإنّ من اللّغو أن تعرض مذهبًا فلسفيًّا بالطّرق المنطقيّة، أو تحدّد العقل بالمقاييس التي اخترعها العقل. وإنّما هذه الأحكام المنظّمة ومجموعة التقاليد المقدّسة، المحدّدة للخير والشّر، والجميل والقبيح، إنّما هي أحكام موضوعة، لا ظلّ لها من حقيقة، ولكنّ الإنسان هو واضعها، ومقدّسها. وخيرنا من ساعد على نشر «ذاته» وشخصيّته فالكتاب، مثلاً، إن هو إلا فعل يقوم

بقيام شـخصيّة صاحبه، وبكيانـه الكامل. فهو إذًا ليس بمفكّر فحسـب، بـل هو نبي .. لا يقـول للنّاس: «أنا أحمل إليكم الحقيقة العالميّة غير المقلقة بـذاتي» ولكنّـه يقول: «ها أنا ذا بـما فيه من إيمان وحقيقـة وخطأ كما أنا».. أقـول: «نعم، للكون؛ لكلّ أفراحـه وآلامه، فانظروا إن كنتم تجدون أيضًا سعادتكم في هذه الآراء التي وجدت فيها سعادتي.

وبينما يروح غيره من الفلاسـفة متباهين بانسـلاخهم عن شخصيّتهم ترى نيتشـه يحمل من شـخصيّته مـدار فلسـفته. ففلسـفته في الحقيقة هي تاريخ نفســه و«زراداشـت» النبي الـذي كتب عنه بلهجة شـعريّة مؤثّرة، هو ذات نيتشـه عـمّا يجول فيها مـن رغائب وآمال، وأحـلام ومن لم يفهم شخصيّته لا يفهم فلسفته.

الفصل الثاني:

حياته الأولى

ولد نيتشـه عـام 1844من أسرة يعتقـد بأنّها أسرة بولونيّـة قديمة ألجأها إلى ألمانيـا مـا آلها من أحداث. نراه في حداثته مثال السّـيطرة والاعتماد على الذّات، وقهر الآلام الجسـديّة، وقد كان كثير الوفاء والاحترام لأصدقائه عـلى الرّغم من ميله الطّبيعي إلى العزلة، صارمًا في معاملته لا يميل إلا إلى مـن يلائم هواه ويوافـق مزاجه ولا ينفر إلا من طغت الرّداءة والشّراسـة على خلقه. صارم في حديثه، جاد في مزاحه، ولا يهوى المزاح الكاذب مهما كان مذهبه؛ لأنّ خروج الرّجل عن طبيعته في الحياة الخاصّة يخرجه عنها ما يخرجـه في الحيـاة العامّة. لا يطيب له مجلس العامّة من النّاس ولا الدّخول في حلقاتهم، أمّا هو في حياته كما تمثله لنا كتاباته؛ إرادة فولاذيّة، وسـيطرة بعيـدة، وكأنّـه جبل مـن طينة غير الطيّنـة البشريّة لا يهـوى الضّعف، ولا الاسـتكانة، ولا يميل الى الاستسـلام. ولعلّ الكاتب الدّانماركي «ايبس» قد رسم شـخصيّة نيتشه في مسرحيّته (الراعي براند) الذي كان رجل كلّ شيء، أو لا شيء. يمـشي في طريقـه، لا يصـدّه شيء، ولا يقفـه حاجز ولا يشـفق على نفسـه ولا على غـيره. يضحّي – بـدون وجل – بسـعادته من أجل إتمـام إرادته، يمشي ولا يتسرّب إليه الضّعف دامي القدمين، ومحطّم القلب، ومخترقًا سبيله، بطلاً أبسل في كل ما يريد. ولا يزال هذا دأبه حتّى يريحـه الجنون، أو ترحمه المنون... مثل نيتشـه مثل هـذا الراعي؛ وعلى كلّ شيء أو لا شيء يذهـب بإرادتـه حتّى النّهاية، وقد تكون هذه البطولة عند نيتشـه أحد عوامل سروره كما يكون الاستشـهاد لذيـذًا عند من يقضي في سبيل وطنه أو عقيدته.

على أنّ هنالك نفوسًا شاذّة في هذا المجتمع، من يقدّر لها أن تحارب التّعاليم والتقاليد، وهي تعلم أنّ في هذه الحرب شقاءها وبلاءها تراها مضطربة بطبيعة حالها حتّى تكون ذات قلب شديد، وإرادة فولاذيّة تستعين بها على اقتحام المصاعب. ومثل هذه البطولة بطولة المجاهد الذي تتصلّب إرادته، وتتحجّر عزيمته، وهو خلال ذلك، مفتقر إلى صداقة تسعفه، وتساعده. ومن عسى يتخذ صديقًا له من بين هذه المخاليق النّاقصة؟ على أنّه اتّخذ أصدقاء يقنع بكمالهم ويؤمن بمثلهم، ويغضي طرفه عن نقصهم. وقد صوّر، في مطلع حياته، بعض صور أصدقائه صورة تامّة كاملة كأنّها المثل الأعلى. وبهذا وجد في الفيلسوف الجرماني العابس «شوبنهور» أسمى مثال للفلسفة. وفي الموسيقار «ريشارد فاغنر» أسمى مثل للفن. وإذا قدّر له أن يجد في صحبة هؤلاء راحة نفسيّة في البدء فإنه وجد في نهاية هذه الصّحبة المًا طالما أنصبه وعذّبه. ومبعث هذا الألم أن الفيلسوف ظلّ ساعيًا دائبًا وراء «الإنسان الكامل» الذي مثّله له مثله الأعلى. وكم جرّب أن يغضّ الطّرف عن نقائص صديقيه، وألا ينظر فيهما إلا مثلاً أعلى للكمال الإنساني! لكنّ إرادته غلبت في النّهاية على الصّداقة، فتذوّق من حرمان الصّداقة المرارة كما تذوّق الحلاوة وهكذا آب إلى عزلته، لأنّ طبيعته تدعوه إليها.

هناك علاقته بالمرأة تبدي ناحية من نواحي نفسه، فقد زعم أناس أنّ نيتشه كان يذهب من المرأة مذهب معلّمه «شوبنهور» الذي كان يمقت المرأة. ويستشهدون على ذلك بقوله: «أيّها الذّاهب إلى المرأة، لا تنس عصاك!» ولكن هذا الحكم يسهل نقضه على المحقق في تعاليم نيتشه. فالمرأة التي طعنها نيتشه في الصّميم هي المرأة المسترجلة، التي تريد أن

تزاحـم الرّجل في علمـه وجهاده واقتصاده، أمّا غير هـذه المرأة فهو مقدر إيّاها، محترم لفضلها، مقدّس لمعنى المرأة فيها. ولقد كان له منهنّ صديقات وصاحبـات فضليات وهو وإن لم يتذوّق من امرأة ذلك الهوى العاصف، والحبّ اللافح، فقد تذوّق عطفها الرّقيق وعاطفتها الخالصة، وقد ذكرت شـقيقته في مذكّراتهـا: «أنّ أخاها كان يجهل الحبّ العـادي، وإنّما كان همّه الشّـاغل له البحث عن الحقيقة. على أنّ هذا الفيلسـوف السّـئم، المنطوي عـلى نفسـه الذي لم يستسـلم إلى الأهـواء المصطخبة، والميـول الملتهبة، قد تـذوّق أيّـام نكبته من عطف المرأة ما لم ينعـم بمثله إلا قليل. فهو صاحب مثل أعلى في الحبّ كما كان في الصّداقة».

وهنالك نشـأته المدرسـيّة، فقد دلّت على طبعه الأرسـتقراطي الذي ينفر مـن كلّ شيء مبتذل شـائع، ولا ميـل إلا إلى كلّ جميل لامـع. وطبعه هذا هو الذي حمله على اعتزال رفاقه الذين يدرسـون معه. وذوقه هذا الجانح إلى محبّة الأشـكال الجميلة، مال به إلى عشق الجمال القديم، وحبّ «العبقريّة الفرنسيّة الغابـرة والحـاضرة» ونفوره من السّـوقة والعامّـة جعله ينفر من المسـيحيّة، ويصفهـا ويصـف اصحابها ورسـلها وصفًا قاسـيًا، ويكـره كلّ المبادئ التي تبشّر بها الدّيمقراطية، والإنسـانيّة الاشـتراكيّة وكلّ تعاليـه الخلقيّة إنّما تؤول إلى هـذه الغايـة: «هل هذه العاطفة شريفة أو غير شريفة؟» ولعلّ نيتشـه كان يعبّر عن نفسه الجبّارة بهذه الجملة التي يردّدها بطله «زراداشت» حين يقول: «تسألونني لماذا؟ أنا لست ممّن يسألون حين يعملون لماذا؟»

وهـذه هي صفة نفـس لا تعتمد إلا على إرادتها. تحتمل الالم وتصدمه، ثمّ تهزمه. وتقابل القدر، وتعلن سيادتها عليه.

الفصل الثالث:

أطوار حياته

كان هوى نيتشــه الرّاسـخ في صدره هو عثوره على الحقيقة. فلننظر أي طريق ركب إليها؟ وما الدّوافع التي هيمنت عليه؟ كان نيتشه يمتّ بنسب قويّ إلى أسرة مغرقة في دينها، ومتشـدّدة، ومتعصّبة، مع ميل إلى الدّراسة العلميّـة. لقـد قرن والـده العلم إلى الدّيـن، وما كان لنيتشـه أن يبدل هذا السّبيل الذي اختاره له والده، واختارته طبيعته، وقد عرفه أصدقاء الحداثة مثاليًّا في دينه وفي تقواه، ولا عجب إذا اطلقوا عليه، وهو في السّادسـة من عمره، اسم العابد الصّغير! حتّى إذا ما أتمّ دراسته الأولى خرج إلى الحياة، وهـو لا يـزال يفكّر في ربّه، ولا يكفر بنعمتـه، ولا يجحد وجوده. وما هي إلا أعـوام مرّت حتّى أخذ يرتاب في الدّين المتّصل بالعلم لأنّ ما في الدّين من إيمان لا يلائم، في اعتقاده، ما في العلم من حرّيّة وانطلاق. وهو عندما يعمل على درس الطّبيعة والتّاريخ، متوخيًا الحقيقة من وراء دراساته، يجد في عمله هذا ما يسمح له بأن يكون طليقًا حرًّا لا يسترقه شيء. ومنذ ذلك الحين بدأ يطمع في الحقيقة العلميّة، دون أن يتسنّى له أن يوفق زمنًا طويلاً بين حقيقته المنشـودة وبين إيمانه الموروث، فهما عنده حقيقتان متضادتان؛ إذا تلاءمتا في أوّل الطريق فنزاعهما حقيق في وسـطه واذا توافقنا في وسطه فالخلاف ناشب لا محالة في منتهاه. وها هو ذا نيتشه يفصل الآن بين هاتين الحقيقتين ويكتب عام 1862 «تجربة فلسفيّة على القدر والتاريخ» فيحدّثنا أنّه سـبر بعقله «اوقيانوس الأفكار الواسـع» وهمّ بـأن يجازف بنفسـه في بحـر الشّـك. ولكنّه وجـد أنّ مجازفة روحـه الضّعيفة التّجـارب، إنّما هي ضرب من الجنون، لأنّها لا تملك عدّة كافية، ولا تحمل سلاحًا.

منذ تلك اللّحظة ألفى أن الدّيانة المسيحيّة مبنيّة على افتراضات وهميّة،

إمّا وجود الله، والخلود، والوحي، فستبقى جميعها مسائل لا حلّ لها. إنّني جرّبت أن أكفر بكلّ هذا. وما أيسر الهدم! لكنّ الهدم يستلزم البناء، على أنّ الهدم والتّخريب هما أصعب ممّا تمثله عقولنا. فنحن في الحقيقة لا نعش لأنفسنا ولا نملك أنفسنا وقفًا علينا. فهناك أوهام الطّفولة وأساطيرها تحتلّ مكانة منّا وهناك تعاليم الآباء والمعلّمين تؤثّر فينا، كلّها عوامل مترابطة، ومتلاحمة، لا يسهل على العقل أن يخترق سياجها، ولا يمكن للمنطق أن يقوّم اعوجاجها. إنّ قوّة العادة المتوارثة، وتسامينا إلى الكمال، وانفصالها عن العالم الحالي، وحل عقد المجتمع، والشّك في حقائق الوجود، وكلها نوازع تتنازعنا، وتملك علينا إرادتنا، والنّكبات المفجعة، والتّجارب المؤلمة هي التي تسوق قلوبنا إلى الإيمان الذي ولد مع طفولتنا، وصاحب حداثتنا.

بعد ثلاثة أعوام ألفينا «نيتشه» يخطو خطوته الأخيرة، ويعلن أنّ الإنسان بين حالين لا ثالث لهما. فهو إمّا أن ينتخب الإيمان وما في الأمان من هدوء ووقار واستقرار، وإمّا أن يمشي على طريق محفوف بالمخاطر، هو طريق الباحثين عن الحقيقة الذين لا يتّخذون الهدوء والسّكينة مأربًا لهم، وإنّما يجدون مآربهم في نشدان الحقيقة، يمشي الباحث منهم وحده مضطرب النّفس، وقلق الضمير، وممزّق القلب نحو ضالّته المنشودة، ونحو ما يتجلّى له من حق وخير وجمال. وهو إذا تنكب طريق الباحثين، ورضي لنفسه بذلك الهدوء الجدب فقد قتل البطولة في نفسه، وحكم على رجولته بالموت. انفصل نيتشه عن المسيحيّة التي كان يؤمن بها قبل عهد الانفصال إيمانه بشيء رمزي قائم على قواعد رمزيّة، أنّ الحقائق السّامية تكون رموزًا لحقائق أسمى منها وأعلى، وظلّ يدرك خطر العمل الذي

أقـدم عليـه، ويتكلّـم، في كلّ فصولـه، عن مـوت الالـه، كأن موته عنده حـدث عظيم في تاريخ البشريّـة، أعمل نفذ اليوم بدؤه، والاجيال القادمة ستكمله. ولكنّ نيتشـه أعدم «هذا الاله» ليبعث الـه الحقيقة، «هذا الاله الأدبي قـد مـات ليعيش بعده الاله العلمي» وهكـذا حمله حنينه الهاجع في الحناء نفسـه للدّين، إلى الايمان باله الحقيقة. وعندما وجد نفسـه يتنازعها إلهـان، سـلطانهما نافذ فيـه؛ الاله الذي ورثـه، والاله الذي لقيـه، رأى أن يضحّـي بـالأوّل، ويبقي على الثـاني. وهذا الالـه الثّاني هو الذي يسـيطر وحده على كلّ تعاليم نيتشه ومبادئه، ولم يعش مع الهه هذا ما يعيش أولئك مع آلهتهم مستسـلمين قانعين بما نزل على قلوبهم من برد اليقين، فهو يهبّ عامـلاً على تحطيم كلّ عمارة مشيّدة على الإيمان بذلـك الاله الأوّل. وهو الآن لم يعد يؤمن بنظام الطّبيعة، ولا بجمالها، ولا يميل إلى محاسنها ولم يعد يـرى في صفحات التاريخ ذلك القضاء الالهي، والنّظام السّـماوي اللذين يقـودان الإنسـانيّة إلى مرابعهـا التي خلقت لها، ولم يعد يستسـلم إلى ذلك القـدر الذي يذهب بحياتنا ما يشـاء. ولا إلى تلك الارادة الالهيّة التي تودّ أن تهدينا إلى سبيل النّجاة والسّلام.

لقد بحث نيتشه جميع الأديان والشّرائع منذ العصور الأولى؛ والمذاهب التـي نزلت لتخرج الناس من الظلمات إلى النّور؛ وبعد أن شـكّك في هذه المذاهـب، وارتـاب في حقائقها، وأغـرق في الانكار، عـاد إلى هذه الفكرة التي قالها جازمًا، زاعمًا أنّه بهذه الفكرة حلّ مسـألة الوجود: «إلا أنّ الآلهة جميعهم قد ماتوا والآن نريد أن يحيا الإنسان الكامل «السوبرمان». وهكذا أضاع نيتشه الهه، ووجد نفسه».

بحث الناقدون كثيرًا في فكرة نيتشه التي كانت تتطوّر وتتبدل تبعًا لما يحيط بحياته، وهو قبل بلوغه هذا المرفأ، خاض بحارًا كثيرة، وجاز شواطئ كثيرة. وقد أدرك بذاته تطوّر ذاته، فشبّه نفسه بالأفعى التي تنسلخ من جلدها، أو النّسر الذي ينسل ريشه والحياة عنده ليست بواجب يلقى، ولا بعمل يفرض، ولا بوهم يحب وإنّما هي مادّة شأنها شأن المواد التي تقع بين يدي الباحث. وكان ينظر نفسه كالمتنقّل دون انتهاء، همّه النضال تهذّبه انكساراته كما تهذّبه انتصاراته. أو كالواثب بين الصّخور، يكاد يذهب بنفسه ضحيّة على رؤوس الصّخور الشّاهقة وهو - بلا كلل ولا فتور - يصعد من عال إلى أعلى، ومن قمّة إلى قمّة، مبدلاً كلّ لحظة أفقه، عازمًا ألا يقف أبدًا، ولا ينثني أبدًا. رفيقته الشّجاعة وحليفته الصرامة، لا يروعه البرد ولا تخيفه الهاوية ولا يجزع من العزلة التي تتنفس فيها ريح الثّلج المنهمر. هو دائمًا في صعود وارتقاء!

هكذا يعتقد نيتشه الذي فهم الحياة بأنّها تفوق بعضها على بعض، يعتقد بأنّ التّطوّر لا غنى عنه، ولا بدّ منه لأنّه مادّة ضروريّة في تحوّل الحياة. يعتقد نيتشه ذلك، ويدأب على أن يوفق بين حياته وإرادته مع هذا المثل الذي اعتقد به. وكان توفيقًا كاملاً، وكان تلاؤمًا كاملاً. وصارت مسالة في الحياة هذه المسألة: «ما عسى يكون عندي معنى الحياة إذا لم يكن اله؟» يجيب على هذه المسألة بهذه الكلمة: «أنّ اللاشخصية ليس لها قيمة على الأرض ولا في السّماء. إنّ الحب الأكبر هو جوهر ضروري وجوده في كلّ مسائل الوجود الكبرى. وهذا الحب وحده جدير بالأرواح القويّة النّشيطة ذات اليقين الرّاسخ».

هنالك فرق كبير بين المفكّر الذي يقابل مسائل الوجود بشخصيّته، يرى فيها قدره وفاقته كما يرى فيها سعادته، وبين المفكّر الذي يتّجه إليها مجرّدة من شخصيّته، لا يعرف أن يلمسها إلا بفكره البارد الغريب. إنّ هذا المفكر لا يستطيع أن يلمس شيئًا وهب أن مسائل الوجود قد أمكن لمسها فلن يقدر للضفادع أن تلمسها، ولا للدّجاجات المسترخية المترهّلة أن تحسها. ونيتشه وجد في المسألة الكبرى شقاءه وسعادته، وقد ناضلها دون ضعف ولا هوادة ونازلها جسدًا لجسد، دون أن ينفذ إلى قلبه الوهن حتّى إذا أصابه الجنون وقضى على شعوره أعلن نشيد الانتصار.

أوليس هذا، بعد ذلك كله، قدرًا جميلاً بين الأقدار؟

الفصل الرابع:

حاسته الفنية

لم يكن نيتشه مفكّرًا فحسب، بل كان فنّانًا ذا حاسة فنيّة عميقة، يدلّ على ذلك ميله خلال طفولته الأولى إلى الموسيقى وعشقه لأربابها، وهل كان إلا غرامه بها الذي جعله ينظر إلى «فاغنر» كمثل أعلى لموسيقى عصره؟ وقد أكبّ على تلقن أصولها ومبادئها في صباه الأول. ودفعته حاسّته إلى نظم بعض المقاطع الموسيقيّة، ما هي إلا خطوة واحدة لو خطاها نيتشه لأشرف على عالم غير عالمه، ولأشفى على وجود يبدل كل أفكاره وكل آرائه. وهو يقول عن نفسه «لو لم ترجح كفّة التّفكير عندي لكنت الآن موسيقيًّا» على أنّ ذوقه الموسيقيّ لبث حيًّا في طوايا نفسه، يرتاح للموسيقى أينما صدحت، ويغيب في عوالمها حيث تفتّحت عوالمها. وهو أكثر ما يطمئن لتلك العوالم الفنيّة المظلمة التي تذهل فيها النّفس، وتدرج إلى أعماقها حيث يلتقي الفيلسوف والفنان، وقد يؤاخي هذه الحاسة - عنده - حاسّته الشّعريّة، فهو شاعر بالفطرة، يبدي آراءه الفلسفيّة بطريق الشّعر؛ وله في الشّعر جولات صادقة تدلّ على فنّ عميق وابتكار رائع، وهو وإن صدف عن عالم الشّعر فإنّ حاسّته الشّعريّة لم تخمد، بل ظلّت تعاوده في كلّ ما كتب وسطّر حيث يغلب عليه الشّعر والعاطفة، لا يرى قارئه في تأملاته عقل نيتشه وحده وإنّما هو واجد كلّ كيانه يفكّر ويكتب؛ يطلع عليك بوجوده كلّه لا بفكره وحده.

الفصل الخامس:

الانعتاق

تكاد تكون تفاصيل حياته الشّخصيّة محدودة، فهو قد ولد عام «1844» في «روكن»حيث كان أبوه قسيسًـا وقد تيتم في الخامسـة من عمره. فأتمّ دروسـه الثانويّة وتوجّه إلى الدّروس العالية. وبينما كان يتهيّأ للموضوع الـذي ينال بـه و«الدّكتـوراه» في ليبزيغ، دعـي ليكون أسـتاذًا في جامعة «بال» وقد منح «الدكتوراه» دون أن يعرض موضوعه. قضى ستّة أعوام هادئ النّفـس في الجامعة، يقوم بتدريس اليونانيّـة، وهو كالمقيّد بصحبة أصدقائـه، لا يخرج من حلقتهم، وهـؤلاء الأصدقاء هم زملاؤه وبعض رفاقـه. أضـف إلى ذلك بعض زيـارات متتالية إلى منزل الفنـان «فاغنر» وقـد كان يختلـس بعـض الفـرص فيذهب في بعـض سـياحاته القصيرة إلى البحـيرات والجبـال. ولم يعكـر عليـه هـذا الهدوء إلا اعـلان الحرب السّـبعينيّة فهجر الجامعة وتطوّع في الجيش الألماني، ولكنّ صحّته خانته، فاضطـرّ إلى العـودة مريضًـا. وأعظم ما قـام به من الآثـار الأدبيّة خلال هـذه المدّة كتابه (نشـوء المأسـاة) ونقده للحضـارة الحديثـة. في الكتاب الأوّل يعالـج نبـوغ اليونان وعبقريّتهم المختلفـة في الفنون، وفي الكتاب الثّـاني يعرض «تأمّلات في غير حينها» وهو ينطوي على أجزاء؛ في الجزء الأوّل يحمل على «دافيد ستراوس» وفي الجزء الثّاني يبحث فائدة التّاريخ وأخطاره، وفي الجزئين الأخيرين يبسـط عبقرية الفيلسـوف شـوبنهور، وعبقريّـة الفنـان «فاغنـر» معتقدًا أنّ بإمـكان هذين النّابغتـين أن يقودا الإنسـانيّة إلى مثلهـا الأعلى. وفي سـنة 1876عرا حياتـه الدّاخلية ما عرا حياتـه الخارجيّة مـن تطوّر وتبدّل، وأعظم ما نزل بـه، نزاعه مع صديقه «فاغنر». أضف إلى هذا ما حاق بصحّته من سـوء واعتلال، حتّى منحته الجامعة فرصة يقضيها إذا شـاء في ايطاليا وعلى هضاب سـويسرا. وبعد

هـذه الرّاحة عـاد إلى بذل الجهود عـلى الرّغم من أنّ صحّتـه كانت تنذر ولا تبشّر بخير، فجمع سـنة 1878 كتابه «أشـياء إنسانية» وإنسانيّة جدًّا، وكتابه يضـم «آراء مختلفة» و«المسـافر وظله» فـزادت صحّته ضعفًا حال بينه وبين التّعليم فاعتزل الجامعة لكي يجد المجال الفسيح والقوّة الكافية لإتمـام رسـالته الفلسـفيّة. وهنا بـدّل القـدر صفحة حياتـه ومنحه حياة جديـدة يغمرها الاعتزال وحرّيّة التّفكير والانفصال، ليكمل تحت ظلّها هذه الرّسـالة التي خلق لها. لم يكن ميل نيتشه إلى دراسة اللغات القديمة مجرّد هوى أو هيجان يشـتعل ثمّ انطفئ، فقد مال نيتشه إلى هذه الدّراسة بقلبه وعقله، ذلك لأنّه يريد أن يظهر أمره في علم ضيّق المسـاحة ليدرك العلم فضله. وهو أكثر النّاس علمًا بقيمة العلماء النّاقصين الذين يعلمون كلّ شيء ولا يعلمـون شـيئًا. وها هـو ذا الآن لا يريد أن يعرف كلّ شيء وإنّما يريد أن يعرف شيئًا معرفة متقنة، فبذل ما بذل من صبر وجهد بذل الأمين الرّاعي لأمانته، مدرّعًا بالأناة التي لا غنى عنها للذّاهب مذهبه، راضية بأن يزهق روحه في سبيل العلم وخدمته ولكنّه سالك فيه مسلكًا جديـدًا لا أثر فيـه للتّعاليم الدّارسـة وللتّقاليد التي لا تجدي شـيئًا وهو مزج هذه الدّراسة مع الفلسفة والفن ويجعل من هذا المزج مزيجًا جديدًا.

يعتقد نيتشـه بأنّ المثل «الكلاسـيكي» سـيبقى خالدًا لا يهدّده الفناء، فلا العلـم ولا الخلـق ولا التثقيـف باسـتطاعتها أن تنقذنـا مـن البربريّة إذا سلخنا المثل الكلاسـيكي، وكفرنا بالبساطة الشّريفة التي تتجلى في الفنّ اليوناني، والبراعة اليونانيّة. وإذا شاء رسل العلم أن يجحدوا هذه البراعة وينكروهـا عـلى اليونان فأنّها براعة سـائدة خالدة مسـيطرة على براعتنا، تدلّ على أنّ اليونان كانوا أكثر توفيقًا منّا في حلّ مسائل الوجود. وهكذا

تظهـر مهنة «دارس علم اللغات» مهنة جميلة سـامية. هو لا يعني بإحياء الآثار الماضية والنّصوص البالية ولكنّه كادح دائب في إحياء روح اليونان القديمة. يريد أن يتفهّم كيف قدر لهذه الرّوح أن تتسامى وتتعالى في الآثار التي تركتها، والفنون التي أنجبتها، والمؤثّرات التي تركت تأثيرهم بادية في أدبنا وفلسفتنا فجعلت منهم أساتذة لا يزال الغرب يتلقن عنهم. هذا هو دأب نيتشه يوم دخل جامعة «بال» مدرّسًا يقول في إحدى محاضراته: «أن دراسـة على اللغات ليسـت بإله شـعر ولا بنبية رحمة؛ لكنّها رسـولة الآلهـة، والآلهـة في القديم كانت تهبـط على القرويّـين المحزونين، واليوم تهبط هذه الرّسولة على عالمنا القاتم الالوان المظلم الرّسوم المفعم بالآلام والشّقاء الذي لا يشفى، حاملة إلينا بلسم العزاء عارضة علينا بأحاديثها تلك الوجوه الجميلة المتألّقة في قطر خصب أخضر سعيد. ونظرة واحدة إلى المـواد التي شـاء أن يلـمّ بها، تربنا ما بذل صاحبهـا من قلبه وعقله في التّحليـل والاسـتقراء، معالجة الأدب اليوناني وتاريـخ اليونانيّة القديمة والفصاحـة اليونانيّة وتاريخ الفلسـفة اليونانيّة حتّـى افلاطون. وبعض نظـرات عميقة ينفذها إلى بعض فلاسـفة أو شـعراء وقد قدر بنفسـه أنّه منجـز خلال سـبعة أعـوام أو ثمانية درس كل مـا يتعلّق ببراعـة اليونان وأقدم على المفاداة بعشر سنوات من عمره ليكمل درس المسألة اليونانيّة مـن جميع وجوهها، ولكن - ويا للأسـف - ظلّت هـذه الافكار صورة مقتضبـة ومقاطع صغيرة غير كاملـة لأنّ صحّته المختلة حالت بينه وبين تقديـم مـا ينبغي له لمثل هذا الأمر، فانثنى عـن عمله هذا، ولكنّ الصّور التـي تركها تكاد لا تخفي عنّا الفكرة العامّة التي أراد نيتشـه أن يصوّرها وينشرها. يعتقد نيتشه بما اعتقد به معلّمه «شوبنهور» بأنّ جوهر الوجود

هـو الارادة، وهذه الارادة واحدة عنـد كلّ الكائنات وهي تتجلى بثباتها وقوّتهـا في جثمان الخليقة، على أنّ هذه الارادة هي شـقيّة تفتقر إلى الرّحمة لأنّها تثابر على الجهاد والمقاومة في هذا الوجود وهي موقنة عالمة أنّ نتيجة المعركة عليها لا لها وهل الحياة إلا أنّ تريد شيئًا دون سبب، وأن تتألم دائمًا ثـمّ لا ينتهـي الألم إلا بالمـوت؟ وهكذا تقابل الحياة الأحيـاء حتّى يتفطر الكـون ويعم فسـاده. إنّ الوجود في نظر العقل غير كامـل، لأنّ نقائصه كثـيرة وعنـصر الألم فيه غالب على السّـعادة والرّاحـة، وبهذا يقضي على العقل أن يطوي الارادة على نفسها ويسحقها من وجوده، وإذا انعدمت الارادة انعدم الوجود نفسه لأنّ الوجود ما هو إلا الارادة الفعّالة، ولكنّ نيتشه لا يذهب إلى هذه النتيجة التي أدركها شوبنهور، فالوجود الذي لا يكمل في نظر العقل – عند شوبنهور – يكمل كأثر فنّي يحمل إلى صاحبه الغبطـة الفنيّـة. وفي مثل هـذا الافتراض الـذي يفترضه نيتشـه يرى من واجب كلّ إنسـان أن يسـتنفد وسـعه ويبذل جهده في امتلاك نصيبه من هـذا الجمال، باحتوائه على ما في نفسـه من معنى الجـمال وبتأمّله للوجود ولنفسـه بعين الجمال. إنّنا في سـاعة الابداع الفنّي نشعر بغبطة لا تحدّ ولا تحسّ إذ هي غبطة المبدع، وإذا كان الإنسان في هذه الحياة فردًا قائمًا بذاته، يحيا في عالم المادّة، فهو فنّان بطبيعة خياله المبدع الوثاب، يستطيع أن يبدع ابـداع مـن يخلق ويصـوّر إن كان فنانًا مبدعًا، ويقـدر أن يكون مبدعًا في تفكيره وفي الأثر الفني الذي يبعث في نفسـه خياله الباطني، لأنّه يشاطر المبـدع فنّه ويتحـدّى معه في تحليقه. وهو في كلتـا الحالتين متخيّل صورة أو ألـوان جديدة تبعث فيه الغبطة الفنيّـة ولا يضرّ هذه الصّور أن تكون أخيلة أو أحلام لأنّ أجزاءها مقتبسة من الوجود، ولا ينبغي لهذه الصّور

أن تكـون صورًا ضاحكة تملأ الجـوّ أفراح، فقد تكون صورًا تملأ الأفئدة ذعرًا والنّفوس شـقاء وتكون بعد ذلك كلّه جميلـة. هذه الخاصّة العاملة على إبداع الصّوروالاوهام وتغليب النّاحية الخياليّة على النّاحية الحقيقيّة يدعوها نيتشه والخاصّة الابولونيّة، نسبة إلى «ابولون»[1] والفن الأبولوني عنـده هو النّحـت والتّصوير والشّـعر القصـصي. إنّ الرّجـل الأبولوني يستنقذ نفسه من التّشـاؤم باستسلامه للجمال. يقول للحياة: «أنا أريدك لأنّ صورتـك جميلة، يجـدر بها أن تكون مـادّة للحلم والخيـال». ولكنّ الإنسـان ليـس بكائن يمكن تحديـده بالذاتيّة، أو بالانفصـال، فهو كائن يشـعر بنفسـه كإرادة متفوّقة، ويحسّ أنّه قطعة من هذه الارادة الموزّعة في هذا الوجود كله، ويدرك أنّه يتّحد مع كل ما يحيا وما يتألم، تام الاتحاد مع الوجود. والإنسان في حالة ذهول أو سكر ناشئ عن مادّة مخدّرة، أو إزاء حوادث طبيعيّة كعودة الرّبيع، يشعر بأنّ هذا الحاجز الذّاتي الذي يفصله عن الوجود قد ضعف وزال، ويجد نفسه متّحدًا مع الطّبيعة كلّها. وهذا الطّور يدعوه نيتشه والطّور الديونيزوسي، نسبة إلى الاله «ديونيزوس»[2] ولغـة الرّجل الديونيزوسي هي الموسـيقى التي يعتبرها «شـوبنهور» لغة الإرادة الخالـدة بـل صـورة الرّغبـة الدّائمة المسـترة في باطـن الوجود. والإنسـان في هـذا الطّـور يحسّ بـالألم الشّـامل والوهم الباطل وشـقاء الفرديّة فيكاد يجنح إلى التّشاؤم، ولكنّه يهتزّ قليلاً ويشعر بخلوده ويدرك أنّ إرادتـه المفصولة إنّما هي جزء من إرادة الوجود فتراه حيال كلّ مظهر مـن مظاهـر الفناء أو مصرع بطـل من الابطال يشـعر بأنّ حيـاة الارادة

(1) اله الشعر والموسيقى.

(2) اله الخمرة عند اليونان وهو «باخوس» عند الرومان.

الباقية لم تطفأ بموت البطل. إنّ الرّجل «الديونيزوسي» ينقذ نفسه من التّشاؤم لأنّه يبصر خلود الارادة والحادثات تمرّ والتّقلّبات تستمرّ؛ هو يقول للحياة «أنا اريدك! لأنك انت الحياة الخالدة».

بهذين المذهبين يرى نيتشه أنّ اليونان قد قهروا التّشاؤم، وجعلوا الحياة جميلة زاهية، ويرى أنّ التّفاؤل اليوناني لم يكن بوليد الخفّة والعبث، أو تجاهل لما يغمر الوجود من شقاء وألم، ولكنّه تفاؤل تولد عن مثل أعلى وغاية أسمى، والمؤرّخ الذي يستقرئ هذه التّأثيرات في مطلع تاريخهم يتبيّن له أنّ القوم عرفوا الألم الذي عرفناه وتذوّقوا الشّقاء كما تذوّقناه.

سأل ملك «ميدا» الفيلسوف «سيلين»: «ما عساك تجد خير شيء للإنسان؟»

فأجاب الفيلسوف: «يا ذريّة التّعاسة والألم وأبناء المصادفات والمتاعب! لماذا تنقمون عليّ إذا جئتكم بما لا ترتاح له آذانكم؟ إنّ الخير الذي لا خير بعده هو ألا تكون - أيّها الإنسان - مولودًا، وألا تكون موجودة وألا تصير شيئًا، والخير العاجل لك أن تلقى مصرعك الآن فهذا الألم المنبعث من أعماق الرّوح الشّاعرة بالأوجاع والشّقاء الذي يغمر الأرض هو الذي أهاب باليونان ودعاهم إلى أن يكملوا معنى الحياة النّاقصة بخلقهم آلهة هي آلهة جبال «اولمبوس»، هذه الآلهة كانت نتيجة إبداع الرّوح الأبولونيّة، وانتصارها. أرادوا أن يستنقذوا أرواحهم من حقيقة الوجود المروّعة فعمدوا إلى خلق شعب من الآلهة وجملة اوهام طبّقوها على الحياة التي يرونها صالحة للظّهور؛ وهم مؤمنون بأنّ هذه الآلهة تعمل معهم على جابية التّشاؤم. وهكذا لبست الحياة عندهم

لباسًـا جديدًا، وظهرت ظهورًا جديدًا، وغـدت جميلة في عيونهم لأنّ آلهة جميلـة تتصرّف بها وتديـر أقدارها و(هوميروس) هو المثـل الأعلى للرّوح الأبولونيّـة؛ ومقاطعه وقصائده هي نشـيد انتصار الحضـارة اليونانيّة على سـيّئات الأجيـال الغابـرة؛ وهي التـي خلقت هـذه الرّوح التـي جعلت اليونـان بأوهامهـا وأخيلتهـا تتغلّـب عـلى كآبة الحيـاة الحقيقيـة وقبحها. وازاء هذه البراعة والأبولونيّة، نشـأت البراعة «الديونيزوسـية» أو براعة المأسـاة، عـلى أنّ الروح «الديونيـزوسي» يكاد يكون فاشـيًا في كلّ أصقاع العـالم القديـم. وهو عنـد البرابـرة كان يزجيهم إلى الانهـماك في المنكرات واشـباع البهيميّة الإنسـانيّة باللذائذ. واليونان عـلى الرّغم من حضارتهم وبعدهـم عـن البربريّة سرت إليهم العدوى، ومشـيت فيهم هـذه الرّوح ولكـنّ انهماكهم لم يكن انهماكًا بهيميًّا. أقاموا الأعياد والأندية حيث تنطلق الطّبيعـة ويذهـل الإنسـان متّحد بعاطفتـه مع الوجود ومـن هذا الانهماك تولّـدت «المأسـاة اليونانيّة» التي يرجع أصل نشـأتها إلى فريق «السّـاتير». وهـؤلاء عنـد اليونـان هـم أرواح مـن الطّبيعـة تحيـا، ولا يتـسرّب إليها الفنـاء، تعيـش بعيـدة عن الحضـارة وظهورها في شـعب متحـضّر يقضي عـلى حضارته ويقذف بالحواجز التي تفصل الإنسـان عـن الطبيعة. وهم يظهـرون أنّ الطبيعية ثابتـة قويّة مخصبة على الرّغم من تقلّب الأمم وتبدّل الشّـعوب. واليونـان اعتقـدوا أنّ هذا الفريق مخلوق طبيعـي مجرّد من كلّ براعـة، ولكنّـه ليس بهيمـيّ، يتجلى فيه شيء من السّـمو الالهي، وهو رمز الغريزة الأكثر قوّة وسـيطرة على الإنسـان؛ هو سريع الهيام، يذهله تقرّب الالـه منه وكثير الاشـفاق والعطف لأنّه يقاسـم «ديونيزوس» آلامه وهو لسالم حكمة الطبيعة. ورمز خصب الحياة التي يعبدها اليونان عبادة دينيّة.

كان هذا الفريق يبدو في بدء نشأته وهو نشوان «بالسكر الإلهي» وبرقصه، وموسيقاه تغادر روح الناظر في شبه ذهول عميق، يمحو من نفسه ذكر الحضارة ويجرّده عن ذاته حتّى يرفعه إلى مرتبته ويشركه في ذهوله وسكرته حتّى إذا وجبت القلوب واستسلمت النّفوس يلوح وراء هذا الفريق خلال الاله «ديونيزوس».

وهذا السّكر الالهي قد ولّد خيالاً شعريًّا لم يكن في حقيقته إلا تعبيرًا خالصًا عن حالة نفسيّة واضحة ولّدها هذا المفكر الصّوفي، فالمأساة اليونانيّة هي بحقيقتها موسيقيّة شعريّة. وهي هتاف ظفر الارادة التي تشعر بخلودها ازاء تقلب الكائنات وتحولها. بطل كل مأساة هو الاله «ديونيزوس» وهي عاطفيّة لأنها نشأت لتكون أنشودة في مدح الاله، ثمّ تطوّرت المأساة لتكون أشدّ تأثيرًا في المخيلة، فأصبحت صورة رمزيّة السّحابات يلوح بينها الخيال الالهي الذي يظهر على السّكارى الهائمين في الوادي، السّكارى بالإله. ولكنّ «ديونيزوس» لم يعد يظهر بشكله الالهي وإنّما يظهر بهيئات الأبطال الذين يتمثّل فيهم تحت قناع البطل «كيروموني» أو «اوديب» و«ديونيزوس» هو البطل الحقيقي في كلّ مأساة، يبدو بأشكال مختلفة. وهو في ظهوره هذا يشبه الإنسان في حياته؛ يتيه ويضل، ويناضل ويتألم.

«ديونيزوس» هو هذا الاله المتألم الذي تكلّمت عنه الاساطير، هذا الاله الذي يحس في نفسه بآلام الفرديّة؛ هذا الاله الذي قالوا عنه أنهم جزأوه وهو صغير، وعبدوه باسم الاله «زاكروس» ومن ابتساماته تولّدت الآلهة ومن دموعه نشأ الرّجال. إنّ روح هذا الاله قد فتحت للمعلّم مجالاً

عنـد اليونان، فهـم بعد أن أطلقـوا الأرواح من التّشـاؤم بتأمّلهم للجمال أو بشـعورهم بخلـود الارادة، ذهبوا إلى طريقة ثالثة، هـي المعرفة العقليّة للوجـود واجزائه. فجاء العلـم حليفة ثالثة معهم يناضل التّشـاؤم، فبينما يقـول الفنان للحياة: «يليق بنا أن نحياك أيّتها الحياة لأنّ صورتك جميلة»، يقول العالم لها: «أنا أريدك أيتها الحياة لأنّك جديرة بأن تعرفي.»..

وهكـذا وجد العالم في اكتشـافاته العلميّـة من اللـذّة والبهجة ما يجده الفنـان في أوهامه وأخيلته وتـآزرت هذه الأوهام كلها لتجعل وجه الحياة المشـوّه جميـلاً. يجب ألا نجحـد أنّ فضيلة العلم إنّما هـي تتمثل في البحث الدّائـم والتنقيـب المتواصل، لا في الحقائق التي يكتشـفها، أو النتائج التي يبلغها وخطيئة العلم القطعي هي أنه لا يقف عند معرفته للوجود واقتناعه بما أدرك وتفهم من احاجيه وإنما يثب إلى اصلاحه واتمامه، فتسعده حالته الأولى ما دام يبحث وينقب، ويشقى في الحالة الثّانية ما دام يطمع ويطمح إلى مـا لا قبل له به. يعتقد ببسـاطة نفسـه أن الوجود سـهل فهمه بجملته واجزائه. إنّ رأس كل فضيلة هي المعرفة، وأنّ الجهل هو مصدر كلّ بلاء، وبالعلم وحده يستطيع الإنسان أن يبلغ ما يشاء من أمهات الفضائل. جاء سـقراط وهـو أعظم مفكّر يونـاني جاحد للوحي يؤمن بـأنّ العقل وحده يقـوم مقام الغريـزة والفطرة في الحياة والرّجل العاقل له من عقله سـلاح يـدرأ عنه أخطـاء الغريزة وضلال الفطرة. سـلك سـقراط طريقة خالف بـه قومه واسـتطاع في النّهاية أن يقهر معاصريه بسـموّ منطقـه، وباختياره لمصرعـه الـذي لقيه وتـرك الحياء هـادئ النفس لا يعضـه اسي ولا يقرعه نـدم، كأنّما كان يثبت بهذا المصرع إيمانه في الحياة إيمانًا متفائلاً لا يتضعضع ولا يتزعزع. هذا هو عقل سـقراط الذي هزم «المأساة عند اليونان» وحقّ

لهذه المأساة أن تتلاشى أمام مجلس العقل، لما يطغى عليها من تعاليم لا يجمع بينها قياس ولا منطق يستند كل ما فيها من تأثير على الموسيقى. المأساة لا توحي شيئًا ولا توضح عن أيّ حقيقة نافعة بل قد تجيء فاحشة المغزى، أو ليس يبدو بعد هذا أنّها تعمل على تحطيم أجمل النّماذج التي تخلقها الإنسانيّة؟ فإذا كان هنالك أواصر متينة بين العلم والفضيلة والسّعادة الحقيقية - كما يريد العالم المتفائل - فإنّ المغزى الفاجع يغدو بدعة خطرة.

إنّ سقراط لم يهدم فنّ المأساة وحده، بل هدم كلّ البراعة اليونانيّة. كان المثال الذي تجسّد فيه العقل يوم كان اليونان يتتبّعون بأهوائهم شريعة الفطرة والغريزة وكانوا يريدون الحياة قويّة جميلة، وهو يريدها منطقيّة، تفقه نفسها بنفسها؛ كان مظهر سقراط مظهر المزدري لروح عصره، وهو وحده أعلن بين معاصريه أنّه لا يدري شيئًا، وأنّه على حق في خصامه معمم . يعرج على نوادي الشّعراء والمفكّرين والخطباء والمعلمين، فيقول: «أن هؤلاء الواثقين بأنفسهم يفكرون، ويجادلون بدافع الفطرة وحدها، وهم لا يفقهون ما يصنعون». تراه حيثما توجّه وأينما انطلق لا يبصر إلا وهمًا باطلاً وخطأ فاشلاً، ممّا اضطره أن يعلن أنّه مقدّم على إنشاء حضارة جديدة يديرها العقل وحده. فهدم الحضارة الأولى ولم يبق على شيء منها، فعل ذلك وهو لا يشعر بأنّ العالم الذي هدمه هو أسمى من العالم الذي راح يبنيه بعقله. هذا ملخص ما رآه نيتشه في «المأساة اليونانيّة» وهو جد آسف على ذهاب ذلك الماضي النبيل وقد لا يغنينا أن ننظر إلى مذهب نيتشه من حيث تعلقه بالتاريخ، فهو ليس في الحقيقة إلا مذهبًا استخلصه من بعض نظراته المختلفة إلى أدب اليونان. وللعلم الحق وحده أن يتقبّل هذه

النظرات أو يأباها. يقول نيتشه عن شوبنهور: «أنا بعيد جدًّا عن الاعتقاد بأنّني قد فهمت شوبنهور، ولكنّني مؤمن جد الإيمان بأنّ «شوبنهور» قد أعانني على تفهّم نفسي». وحال نيتشه في درسه العبقريّة اليونانيّة قد تشاكل هذه الحال، فهذه الدّراسة قد كشفت عن تفكيره وأبانت عن منحاه في الحياة، وهذه الارادة التي يدرع بها ديونيزوس، مجابهًا أخطار الموت والشّقاء والالم تعبّر عن عاطفة عميقة من أسمى عواطف «نيتشه». ومهما كانت قيمة كتابه هذا فهو بعد هذا كله كتاب خالد يتلو علينا كيف أحسّ نيتشه بذاته حين درس عبقرية اليونان.

يؤمن نيتشه بأنّ حياة الإنسان في نضال دائم لكلّ وهم ولكلّ خطأ، وينظر إلى الوجود بعيني متشائم، فتبدو الطّبيعة له صورة تبعث الخوف، والتاريخ وحشية خالية منَ المعاني، ينفر ممن يؤمن بأنّ كل شيء هو للأحسن! ولا يعتقد بأنّ في وسع الحياة أن تهبنا لحظة فرح حقيقي، وإذا كانت هذه هي الحقيقة فواجب الإنسان السّاعي أن يحارب دون هدنة ولا هوادة كلّ ما هو سيء، وأن يهدم كلّ القيم الخاطئة والتعاليم الفاسدة، وألا يرحم أيّ مظهر من مظاهر الضّعف والرّياء والجبن في هذه الحضارة (إنّني أحلم برجال كاملين، مطلقي الارادة، لا يدارون ولا يراءون، يدعون أنفسهم الهدّامين، يخضعون كلّ شيء لنقدهم ويضحّون بأنفسهم في سبيل الحقيقة. ألا ينبغي لكلّ سيء ولكل كاذب أن يظهر تحت وضح النهار؟ نحن لا نريد أن نبني قبل السّاعة الموقوتة، ونحن لا ندري إذا كان بإمكاننا أن نبني، أو إذا كان الأحسن لنا ألا نبني أبدًا. هنالك متشائمون كسالى خاضعون مستسلمون؛ إننا لا نكون من هؤلاء، أنّ المثل الأعلى الذي نتبعه ونرتسمه هو الإنسان الذي قال عنه شوبنهور: «من يعتقد

أنّ السّـعادة الحقيقيّـة هي غير ممكنة، ومن يبغـض ويمقت الوجود المادّي الذي تتكامل فيه الإنسـانيّة المنحطّة، ومن يسـتحق كل ما ينبغي سـحقه، ولا يشـعر بألم يحز في نفسـه أو ينتشر حوله ومشـى بإرادة جبّـارة لا يلويه عـن عزمه شيء. وكل ارادته أن يكون مع الحق والصّدق في كلّ شـأن من شؤونه).

يصل شـوبنهور بإنسـانه إلى سـلب الحياة منـه وإلى الفنـاء المطلق. أمّا نيتشـه فإنّه يقدس «كاليوناني الديونيزوسي» هـذه الارادة التي تريد الحياة الخالـدة، وتعمل على تخليدها بأيّ الوسـائل. فهو متشـائم؛ لكن تشـاؤمه لا يدفعـه إلى الاستسـلام، ولكـن إلى البطولـة المناضلة، فهو يـرى الزّهد علامـة مـن علامات الانحطـاط والـذّل، لأنّ التّشـاؤم – عنـده – فكرة مستحيل تحقيقها لا يقبل بها واقع ولا يثبتها منطق، ولن يكون الفناء غاية الوجـود، هكذا راح نيتشـه يمجّد الحياة وآلاءها بـدلا من أن يبشر بالفناء ويبغـض الحياة كمعلّمه. يقـدّس ما يقوّي في الإنسـان ارادته، ويضاعف عزيمته للوصول إلى الهدف الأسـمى، ونيتشـه في هذا شـأنه شأن اليونان في مآسـيهم، يفخـر بذاتـه، ويطول بسـموّه، ويعجب بالحضـارة اليونانية لأنّها أنشـأت جماعـة من الرّجال السّـامين، وهل غاية الحيـاة إلا مثل هذا التّوليد؟ والإنسانيّة عنده تركض وتتألم وتتمخّض لتلد هذا العدد الضّئيل من هؤلاء الرّجال السّامين إنّما على الإنسانيّة أن تعمل لتحمل إلى الأرض رجال عبقرية. هذه غايتها، وليس لها من بعدها غاية، وأنّ علينا أن نوحي إليهـا أن تعجـل بتوليد الفيلسـوف والفنّان فينا وفي غيرنا وأن نسـعى إلى أكمل معنى الطّبيعة وأنّ على الإنسـان أن يحسّ بنفسـه أنّه صنع غير كامل مـن صنـع يدها. ولكنّنا نوقظ فيه – على الرّغم مـن نقصه – هذه العبقريّة

الفنيّـة حتّـى يسـاعد الطبيعة على اكمال ما جـاء ناقصًا منهـا، وهذا يكمل الإنسان الفنان صنع الطبيعة.

هكذا تغدو معرفة الإنسان نفسه وشعوره بصغرها هي أساس نهضته. وألا أنني أرى فوقي شيئًا يتألق هو أسمى منّي فيه من معنى الإنسان أكثر ما في نفسي، فسـاعدني عـلى الوصول إلى هذا المثل، كما أنّني سـأعمل على مسـاعدة مـن يفكّر مثلي ويتـألّم مثلي. كلّ ذلـك لنمهد الطريـق أمام ذلك الإنسـان المقبل، الشاعر بكماله ومعرفته الواسـعة، ومحبّته العميقة التي لا تحدّ، وقدرته المولدة وتأمله البعيد، هذا الإنسـان الذي سـيحيا في الأرض حاكـمًا، بيـده مقيـاس كلّ شيء. فيجـب والحالة هذه ألا نـترك للمصادفة عمل هذا الإنسان، وإنّما ينبغي للناس أن يجهدوا ويعملوا بالانتخاب على خلـق هذه الذّريّة - ذريّـة الابطال - على أنّ هذا المذهب قد يترك جحفلاً من العبيد الذين شـأنهم أن ينفذوا ارادة الأبطال، والعبوديّة - عند نيتشـه - اللازمة لتحقيق مثل هؤلاء الأبطال. إذ ليسـت غاية العلم والبراعة أن تخفف من نصب هؤلاء المتعبين، فعمّال اليوم ليسـوا أكثر سـعادة من عبيد الامـس. هؤلاء كانـوا يخضعون لشرفاء ذوي غطرسـة وخيـلاء وأولئك دائبـون عـلى خلق صفوة سـامية مـن رجـال العبقريّة، فالبطـل ليس دأبه أن يحقـد على المظلومين والمتخلفين فحسـب، بل ينبغي لـه أن يقتل عامل الشّفقة في نفسه إذا هبّ لأنّه عامل خطر، إذا ظفر عمل على قتل البراعة في سبيل السّـعادة المادية للإنسانية. وهو - هنالك - لابدّ مصطدم بالشّريعة الغالبـة التي تسـيطر عـلى الوجود. وكل من ودّ أن يحيـا، أو حكم عليه أن يحيا في وجود مشـحون بالألم والفناء أفينبغي له أن تشـتمل نفسه على هذه المضادّة المؤلمة التي تعبّر عن كنه الحياة وسرّ كلّ تطوّر واسـتحالة كل لحظة

أنّ السّعادة الحقيقيّة هي غير ممكنة، ومن يبغض ويمقت الوجود المادّي الذي تتكامل فيه الإنسانيّة المنحطّة، ومن يستحق كل ما ينبغي سحقه، ولا يشعر بألم يحز في نفسه أو ينتشر حوله ومشى بإرادة جبّارة لا يلويه عن عزمه شيء. وكل ارادته أن يكون مع الحق والصّدق في كلّ شأن من شؤونه).

يصل شوبنهور بإنسانه إلى سلب الحياة منه وإلى الفناء المطلق. أمّا نيتشه فإنّه يقدس «كاليوناني الديونيزوسي» هذه الارادة التي تريد الحياة الخالدة، وتعمل على تخليدها بأيّ الوسائل. فهو متشائم؛ لكن تشاؤمه لا يدفعه إلى الاستسلام، ولكن إلى البطولة المناضلة، فهو يرى الزّهد علامة من علامات الانحطاط والذّل، لأنّ التّشاؤم – عنده – فكرة مستحيل تحقيقها لا يقبل بها واقع ولا يثبتها منطق، ولن يكون الفناء غاية الوجود، هكذا راح نيتشه يمجّد الحياة وآلاءها بدلا من أن يبشر بالفناء ويبغض الحياة كمعلّمه. يقدّس ما يقوّي في الإنسان ارادته، ويضاعف عزيمته للوصول إلى الهدف الأسمى، ونيتشه في هذا شأنه شأن اليونان في مآسيهم، يفخر بذاته، ويطول بسموّه، ويعجب بالحضارة اليونانية لأنّها أنشأت جماعة من الرّجال السّامين، وهل غاية الحياة إلا مثل هذا التّوليد؟ والإنسانيّة عنده تركض وتتألم وتتمخّض لتلد هذا العدد الضّئيل من هؤلاء الرّجال السّامين إنّما على الإنسانيّة أن تعمل لتحمل إلى الأرض رجال عبقرية. هذه غايتها، وليس لها من بعدها غاية، وأنّ علينا أن نوحي إليها أن تعجل بتوليد الفيلسوف والفنّان فينا وفي غيرنا وأن نسعى إلى أكمل معنى الطّبيعة وأنّ على الإنسان أن يحسّ بنفسه أنّه صنع غير كامل من صنع يدها. ولكنّنا نوقظ فيه – على الرّغم من نقصه – هذه العبقريّة

الفنيّـة حتّـى يسـاعد الطبيعة على اكمال ما جـاء ناقصًا منهـا، وهذا يكمل الإنسان الفنان صنع الطبيعة.

هكذا تغدو معرفة الإنسان نفسه وشعوره بصغرها هي أساس نهضته. وألا أنني أرى فوقي شيئًا يتألق هو أسمى منّي فيه من معنى الإنسان أكثر ما في نفسي، فسـاعدني عـلى الوصول إلى هذا المثل، كما أنّني سـأعمل على مسـاعدة مـن يفكّر مثلي ويتـألّم مثلي. كلّ ذلـك لنمهد الطريـق أمام ذلك الإنسـان المقبل، الشاعر بكماله ومعرفته الواسـعة، ومحبّته العميقة التي لا تحدّ، وقدرته المولدة وتأمله البعيد، هذا الإنسـان الذي سـيحيا في الأرض حاكـمًا، بيـده مقيـاس كلّ شيء. فيجـب والحالة هذه ألا نـترك للمصادفة عمل هذا الإنسان، وإنّما ينبغي للناس أن يجهدوا ويعملوا بالانتخاب على خلـق هذه الذّريّة – ذريّـة الابطال – على أنّ هذا المذهب قد يترك جحفلاً من العبيد الذين شـأنهم أن ينفذوا ارادة الأبطال، والعبوديّة – عند نيتشـه – اللازمة لتحقيق مثل هؤلاء الأبطال. إذ ليسـت غاية العلم والبراعة أن تخفف من نصب هؤلاء المتعبين، فعمّال اليوم ليسـوا أكثر سـعادة من عبيد الامـس. هؤلاء كانـوا يخضعون لشرفاء ذوي غطرسـة وخيـلاء وأولئك دائبـون عـلى خلق صفوة سـامية مـن رجـال العبقريّة، فالبطـل ليس دأبه أن يحقـد على المظلومين والمتخلفين فحسـب، بل ينبغي لـه أن يقتل عامل الشّفقة في نفسه إذا هبّ لأنّه عامل خطر، إذا ظفر عمل على قتل البراعة في سبيل السّـعادة المادية للإنسانية. وهو – هنالك – لابدّ مصطدم بالشّريعة الغالبـة التي تسـيطر عـلى الوجود. وكل من ودّ أن يحيـا، أو حكم عليه أن يحيا في وجود مشـحون بالألم والفناء أفينبغي له أن تشـتمل نفسه على هذه المضادّة المؤلمة التي تعبّر عن كنه الحياة وسرّ كلّ تطوّر واسـتحالة كل لحظة

تفترس الثانية؟ وكلّ ولادة هي موت كائنات لا عداد لها، الولادة والحياة والموت كنه ذو جوهر واحد. وهكذا نستطيع أن نشبّه البراعة المنتصرة بالبطل الظّافر الذي يسيل دمه من جراحه، ولكنّه يجرّ خلفه قطيعة من المغلوبين والعبيد المقيدين بعجلته.

ينبغي لنا إذا أردنا الحقيقة أن نضرب بكلّ وهم باعث على التّفاؤل عرض الحائط. فالرّجل الغربي الذي يظنّ ببساطة نفسه أنّ العلم يبعث على السّعادة، ويرى أنّ سعادة الجميع هي غاية الحضارة القصوى. هذا الرّجل يجرّب أن ينكر تعس «العبيد» هذا التّعس اللازم للمجتمع البشري وهو يموّه عليهم بقداسة العمل، زاعمًا أنّ الأكل بعرق جبينه هو أشرف النّاس، فيا له من مذهب حقير أصبح لا يخدع أحد. ولماذا لا نعترف بأنّ العبوديّة هي حقار وصغار، ولكنّنا نستطيع أن نخفّف وقعها، ونجعلها أقلّ شقاء، ونحتم على اصحابها القبول بها. فما ظلّ المجتمع الإنساني على هذا الوضع فإنّ فيه الأقوياء الذين يرفعون عظمتهم على طائفة من المستضعفين في الأرض.

كان المدفع يدوّي في جوف أوروبا، ونيتشه معتزل في أحد أودية «الألب» يعالج درس الرّوح اليونانيّة وفنّهم وحياتهم. ولمّا استقرّ السّلام أعلن أنّ عصر الاحزاب قد شارف النّهاية وأنّ روحًا حرّة يجب أن تنهض وتعرف كيف تتعالى فوق هذه الحدود أنّ الشّرق والغرب مفصولان بشحطة يرسمها قلم لأعيننا. هذه الشّحطة هي التي تثير خوفنا. تقول النّفس الفتيّة: «أنا أجرّب أن أكون حرّة». وحقّ لها أن تثور لأنّها ترى أنّ شعبين قد يهرقان دماءه لأنّ بحرًا يفصل بينهما، أو لأنّ ديانتين مختلفتين

عندهـا لم تكونـا قبل ألفي عام، وهكذا نرى نيتشـه بكلّ ما أوتي من تفكير وقوّة يريد أن يزعزع تقاليد عصره، ويشعر بنفسه بأنّه لم يخلق لحاضره وإنّما خلق للأجيال القادمة.

الفصل السادس:

غزوات نيتشه

الغزوة الأولى:

حمل نيتشه في الغزوة الأولى على الكاتب الألماني «دافيد ستراوس» وعلى كتابه الذي أخرجه في درس الدّين والمدنية، والإيمان قديمه وحديثه، وقد يحتدم غيظا في نقده للجزء الثّاني من الكتاب حيث يعلن «ستراوس» المثل الأعلى الـذي يجده خير ما وجده لأبنـاء الأجيال القادمة. ونيتشـه يصبّ سوط نقده على الرّجل الذي لم يعل ولم يسفل، بل وقف موقفًا وسطًا قانعًا بـما آل إليه، يأخذ مـن كلّ علم بحزمة، ويقنع من كلّ فـن بضمّة، ويعتقد أنّه بلغ الدّرجة القصوى من الكمال الإنسـاني، لا يؤمن «ستراوس» بجنّة المسيح ولا يرتاح لوجود الله وإنّما يعمل على أن يوحي إلى انصاره أنّ العالم مـا هـو إلا رحلة ميكانيكيّة لا تهـدأ عن دورانها، وما على الإنسـان إلا أن يسـلم من الوقوع تحت ثفالها، وهـو في الأخلاق كذلك، فلا يبشّر مذهب خطر، ولا يجرؤ على أن يطلب إلى الفرد أن يستخدم مواهبه وأن يكون كما تريد نفسه في الوجود، وإنّما يقول هذه الجملة بعد تثبّته من اختلاف النّاس في حظوظهم ومواهبهم: «لا تنس أبدًا أيّها الإنسان أنّ الآخرين هم أناس مثلك، لهم حاجاتك نفس وذات مآربك»، يحسب كل ما تجاوز حدّ الفهم الوسط قبيحًا، لأنّ العبقريّة تتجلّى في التّوسّط لا في التّطرّف «فالسّمفونيّة التّاسـعة» لبتهوفن لا تقع موقع الرّضـا إلا عند من يرون الغريب عبقريًّا، والخروج عن المألوف والوزن سـموًّا، وقد ظنّ بنفسه أنّه قهر «شوبنهور» ببرهانـه الرّكيـك الـذي رآه: «إذا كان الوجود قبيح فالعقـل الذي أوجده هو قبيح أيضًا، فالمتشائم إذًا هو مفكّر قبيح، والوجود هو حسن وجميل!»

إنّ سـتراوس في نظـر نيتشـه هـو مثـال العقل المتوسّـط الـذي يدّعي معرفـة كلّ شيء، ويريد أن يفرض سـلطته على الوجـود. هو مفكّر هيّاب

لا يبلغ بفكره إلا منتصف الطّريق ولا يستطيع أن يقصد نهايته، إنّه متفائل يغلق عينيه عن الآلام الضّروريّة للبشر خوفًا ورهبة. وهو مفكّر يدعو النّاس إلى حياة قانعة خانعة، وبدلاً من أن يكرم رجال العبقريّة يعمل على معاكستهم لأنّهم - بزعمه - خالفوا نظامه ومثله الأعلى باختراقهم حدود النّبوغ المتوسّط.

الغزوة الثانية:

تصدّى نيتشه في تأمّلاته الثّانية للتّاريخ؛ وهو لا يجابه رجلاً معلومًا أو طائفة مشهورة وإنّما ينازل مذهبًا حديثًا يهمّ بأنّ يشيع ويطبع الحضارة العصريّة بطابعه، فالتّاريخ هو خير راع للحضارة، وناقل لها ما ظلّ يعمل على خدمة الحياة ويحثّ النّاس على نشدان الحياة السّامية. فالتاريخ الموقوف على نشر المآثر ممثل للإنسان آثار الأقدمين الرّائعة ويبعث في روحه الأمل الملتهب والعزم المتأجّج لإكمال معنى هذه الآثار، ويعمل على رفع مثل الإنسانيّة الأعلى نافضًا من قلبه التّلهي بحبّ الحاضر والاستسلام لملذّاته، أمّا التّاريخ التّقليدي الذي يوحي للإنسان احترام الأشياء الفانية، وحب الآثار الماضية، فهو خير حقير يحمل اصحابه على الرّضا بالحاضر الممقوت؛ يسكرهم بذلك الماضي الذّهبي البعيد ويسكب في وجودهم القاتم المستكين مخدّرًا شعريًّا يبعثهم على الرّكود. وهنالك التّاريخ النّاقد الحاكم، يعرض الماضي كلّه على محكمة العقل ويبحث فيه ثمّ ينفيه، لأنّ كل ما كان من حقّه أن يزول. إنّ مثل هذا التّاريخ هو سلاح محمود عند من أثقلت ظهورهم أعباء الماضي الثّقيل، وهم يريدون أن يطرحوها عنهم ويمشوا قدمًا إلى ما خطت لهم الحياة. وقد يستحيل

التّاريخ إلى قوّة غاشـمة سيّئة حين ينفصل في طريقه عن الحياة، وحين يودّ أن يفـرض مذهبـه خاصّة بعيـدًا عن مذاهبها، إنّه يصبح رسـول موت لا رسـول حياة، ينشـئ من الإنسـان مجموعة محشـوّة علوم ومعارف ويقتل فيه القوّة التي تسـوقه إلى العمل. إنّه مجموعة أثريّة لا حظ فيها لسـطر من سطور العمل، صاحبها ضعفت شخصيّته ونشأ في تفكيره عالة على غيره، وتعلّم أنّ التّاريخ يجب أن يتلقنه تلقينًا، وإلا يضعه بنفسـه؛ على أنّ المؤرّخ الحقيقي الذي ينبغي لمثله أن يسـطّر التّاريخ هو من يقف تجاه المسـألة التي يدرسـها وقفة الخلي ويعمل دائمًا على تشييد بناية الحاضر. رجل التّجارب والسّمو هو الذي يسطر التاريخ.

التّاريخ وجهة ثانية رائعة يسـتخلصها نيتشه هي أنّ التّاريخ يكرم من التّفـاؤل ما كان محفوفًا بالكدر والخطر، ويحترم الميول الفظّة ويعبد الظّفر. يعتقـد المؤرّخ أنّه يرى في الحركة الإنسـانيّة أثرًا لا أعلم من أيّ عقل سـام منحـدر، يجهد العقل ليـدرك أنّى بدأت هذه الحركـة وأن يجب أن تنتهي. والإنسان لم يكن عظيم إلا حين كان يشنّ الغارة على القدر ويعلن الحرب عـلى القضـاء الأهـوج؛ ولكنّه يفعل ذلـك دون أن يخرج من نفسـه، ليس التّاريـخ الحقيقـي بذلك التّاريخ الـذي يأتي عـلى كلّ شيء وإنّما هو تاريخ أبنـاء العبقريّة، وسـيأتي عـصر تبدّل فيه صـورة هذه الحـركات التي ألف التّاريخ تسـجيلها، وسترسـم هذه الصّورة بصورة أدنـى إلى الحقيقة، فلا يكتـب التّاريـخ بعمومه وخصوصـه وإنّما يقتصر فيه على رجـال العبقريّة الذيـن أثـروا في العالم؛ هـم لا يأتون ويتعاقبون بحسـب شريعـة تاريخيّة، ولكنّهـم يعيشـون وراء الزّمـان يمثّل وجودهـم المتّصل المتماسـك معبّرًا

ترابطت أجزاؤه واستمكنت عقده فوق الأمواج العاصفة. وأنعم هذا التّاريخ الذي يرسم هذه الصّورة ويخرج هذا المثل. وهذه هي جمهوريّة العباقرة التي تحدّث عنها «شوبنهور» عبقري ينادي عبقريًّا أثناء العصور واهضام الأجيال. ووظيفة التاريخ أن يجمع شتاتهم، ويدني بعضهم من بعض، وأن يهيّئ - في كلّ مهلة - ولادة جديدة لعبقريّ جديد. إذ ليست غاية الإنسانيّة من سيرها ذلك الغرض الذي تزحف إليه وإنّما غايتها تتمثّل في النّماذج الكاملة التي تخرجها وتنشئها في الوجود.

الغزوة الثالثة:

لم يقف الأمر عند تهديم العمارة القديمة وتعاليمها الخطرة. فهو يقصد إلى تشييد عمارة المستقبل على دعائم جديدة، فتحرّى عن عباقرة أحياء يستطيعون أن يذهبوا بالشّباب إلى هذه العبارة وإلى هدف جديد، ينزع عنهم هذا التّفاؤل المنحدر، ويعرضهم أمام أنفسهم مجرّدين، وسعى إلى أن يرى له معلّمين يساعدونه على كشف نفسه ويعرفونه بنفسه؛ من أين نشأت وإلى أين تذهب؟

وقع، أو شاءت المصادفات أن يقع نيتشه مصادفة على كتاب «شوبنهور» «العالم ارادة وتمثيل» وما كان نيتشه ليقدر أنّ هذا الكتاب سيقلب كلّ اطوار حياته، ويترك ثورة مستمرّة في نفسه، ثمّ تشتعل هذه الثّورة وتزيدها الأيّام ضرامًا، فلا تهدأ إلا بعد أن تأكل نفسها، وتمدّ ألسنة شواظها إلى نفسها، فتهدأ الثّورة بثورتها على ذاتها. فكان أوّل ما شغله من هذا الكتاب الجديد شخصيّة صاحبه المتجلّية في كلّ حرف من حروفه وهو الذي يقول: «أنا من قرّاء «شوبنهور» ممّن يدركون أنّهم سيتلون

شـوبنهور من فاتحته إلى خاتمته، وسـيصغون إلى كلّ حرف تهمسـه شفتاه. إنّ ثقتي به ثقة عمياء ما زادها كرّ الأيام إلا ثباتًا.

أثّرت في نيتشـه تعاليم «شـوبنهور» تأثيرًا ظهر في كتابه «نشيد المأساة» وعنه اقتبس قواعد كتابه، فاتخذ الارادة منه كشيء قائم بنفسه؛ والذّاتية في الوجود مصدر كلّ ألم، والموسـيقى كلمة أصيلة للإرادة. وفي الكتاب ذاته يرحّب «بشوبنهور» ويحيه تحيّة العبقريّة، يرى فيه هاديه إلى الحقيقة، ويحلّل تأثيره وما يمكـن لهذا التّأثـير أن يفعلـه في الأرواح الحديثة. يقـول: «إنّ الإنسـان اليوم يتحرّى عـن ذاته، ولا يفتأ يتحرّى حتّـى تهديه المصادفات إلى معلّـم نافـع فيتبعه، لا يعمل هذا المعلم على تخطيـط آثار وتعيين طريق مـن الطّـرق المختلفة، ولكنّه يعمل على اسـتنقاذه من كلّ ما يمسـك عليه حريّتـه ويحول بينه وبـين الوصول إلى هذه «الـذات» الغامضة المتوارية في احناء كلّ إنسـان. لم يكن معلّمه إلا شـوبنهور، شـاهد فيه للوهلة الأولى ذلك الفيلسوف الصّادق المستقيم الذي يتحرّى عن الحقيقة في كلّ ما حبر وسطر.

في مدرسة شوبنهور تعلّم نيتشه أن يرى الحقيقة كما هي ما فيها من قبح وما تنطوي عليه من ألم. وتعلم أنّ العبقريّة يجب ان تناضل عصرها وأبناء عصرهـا حتّى تحمل النّاس على الاعتقاد بوجودها في حين تناضل العنف وتحـارب الرّذيلـة، تحاول في هذا كلّه أن تطهر ذاتهـا من كلّ الاضرار التي دخلت عليها من مجتمعها. وأخيرًا وجد نيتشـه في شـوبنهور تعريفه لحياة البطولـة، أمّـا الحياة السّـعيدة فهي ضرب من المحال ولكن الذي يمسـح الإنسـان بمسـحة الجـلال هو أن يعتنق حيـاة البطولـة، وأن يقضي وجود

تزينه الرّجولة. لا تحفل بأن تكافأ على حياتك، فخير ما تكافئ به نفسك أن تكون عظيمًا ظافرًا، ذكراك تبقى حيّة، وأنت تمجد تمجيد الابطال وارادتك تثب من خطر إلى خطر، وتصعد من قدر إلى قدر، حتّى تتلاشى في «النّرفانا» وهكذا خال نيتشه أنّه وجد في شوبنهور روح «ديونيزوس» التي تعتمد على الارادة وحدها.

الغزوة الرابعة:

هناك صداقته القديمة للموسيقي الفنان «ريشارد فاغنر» هذه الصّداقة التي يعود عهدها إلى أيّام الحداثة، ما عمرها إلا اعجاب نيتشه بآثار هذا الفنان اعجابًا تسامى عن اعجاب فنّان بفنان إلى امتزاج إنسان بإنسان؛ فقد تقاربا وتعاشرا ردحًا طويلاً من الزّمن، كانا خلاله مثلين للثقة العمياء والمودّة الرّاسخة، وظلا ثابتين على هذه الصّداقة حتّى شاءت الظّروف أن تفرق بينهما. فمضى «فاغنر» إلى بايروت، حيث أسّس دار التّمثيل، فكان نيتشه يعوده بذات الاعجاب؛ وفي إحدى مطالعاته الأخيرة وصف فاغنر، كبطل من ابطال العبقريّة على النّحو الذي ذهب إليه في معلمه «شوبنهور» ولكن هذا أدّى رسالته عن طريق الفلسفة، وذاك يؤدّيها عن طريق الفن بأسلوب حيّ يمازجه شيء من الغموض. هو ذلك العبقري «الديونيزوسي» الذي لا يستطيع أن يعبر عن عالم عواطفه الزّاخرة في نفسه بطريقة الكلام والبيان الناقص، فهو عبقري جمع إليه جملة فنون متصاحبة، فيه براعة الممثّل، وعبقريّة الموسيقي وسموّ الشّعر، تساعده كلها على التّعبير عمّا يخالج نفسه ويغشى حسّه.

وقد كان هدف «فاغنر» من افتتاحه لدار التّمثيل أن خلق دراما موسيقيّة يحيي بها عهد المأساة عند اليونان، وأنّ تحقيق هذه الدراما ليعد أول محاولة من نوعها في تاريخ أدب الغرب الحديث، لأنّها محاولة لا ترمي في الحقيقة إلا إلى إحياء العبقريّة اليونانيّة الهامدة؛ ولو أنّ هذا العمل قدّر له الانتصار والبقاء لاعتبر طليعة صادقة من فجر جديد في تاريخ الإنسانيّة.

ولكنّ نيتشه بعد انجازه ما كتب بأسابيع قفل عائدًا إلى أهله، وقد تراكم عليه اليأس والضّجر، فجعته الأيّام في أحلام صباه، وانتصر فيه اعجابه «بفاغنر» على كلّ شيء. هذا نيتشه الذي كان قذفة كل خاطرة طفق يدنو من استقلاله الفكري الذي قهره عليه سلطان هذين المعلّمين وهو أحد المتعصبين لأفكارهما وآرائهما وأحد العاملين على بثها لأنّهما في اعتقاده أكمل ما جاد به المثل الأعلى. ولكنّ نيتشه أخذ يعمل بينه وبين نفسه على الانفصال من قيودهما. وقد عرفنا كيف انفصل عن «شوبنهور» في مسائل واضحة من مذهبه، فقد أصبح يرتاب في كلّ ما ينطوي عليه هذا المذهب من المسائل التّصوّريّة، وفي الخاصّيّات التي يعزوها صاحبها إلى الارادة، وفي الارادة التي يزعم صاحبها أنّها كنه اكناه الكون، وفي الشّيء القائم وجوده بنفسه. وبعد قليل حمل على التّشاؤم الذي يدعو إليه شوبنهور، فأبى الخضوع والاستسلام وأبى الجنوح للسّكون الفلسفي. وبهذا قضي على فلسفة الحكمة والراكدة واللابسة لباس اليأس. هو يريد الحقيقة مهما كان منها ولو كان للعلم فوز في تضحية بني البشر لفعل ويمدح الحكمة الممزوجة بالمأساة، التي تكفر بعلم ما وراء الطبيعة ثمّ تخضع المعرفة لها لتخدم أجمل شكل في أشكال الحياة، ويعيد للفنّ حقوقه التي انتزعها العلم منه.

هذه الحقوق التي تخوّل الإنسان حقّ التّخيّل وحقّ التّوهم، ولم يكن حكم نيتشه على «فاغنر» بأقل جرأة وقسوة، فقد أخذ يبدي فيه مواضع ضعف محسبها النّاظر ذخائر جمال، ويظهر ما يطغى على روحه من روح الفوضى والاضطراب، ويقارن بينه وبين «باخ وبتهوفن» الذين هما أصفى مزاج منه، وأصبح في شكّ من قيمتّه الفنية التي تدسّ فيه الموسيقي والشّاعر والمفكر. وأخذ عليه تشبّثه بالقديم وعودته إلى الآراء القديمة، منها توقانه إلى القرون الوسطى وميله إلى المسيحيّة والذّهول البوذي وحبّه للأشياء الغريبة، إنّه أصبح في شكّ من أيّ تأثير يحمله «فاغنر» إلى الشّعب الالماني. هذا نيتشه الذي كان يرى في موسيقى «فاغنر» المثل الأسمى قد انقلب عليها وجحد بها، فما هي علة هذا الانقلاب؟

يقول نيتشه جوابًا على هذا السّؤال أثناء تحدّثه عن شوبنهور: «إنّنا نخاله فيلسوفًا ثمّ نرى إذا خدع في الأسلوب الذي أبدى به ملحوظاته فإنّ هذه الملحوظات لا يشوبها خلل لأنّ منازل هذه الملاحظات لا خلاف فيها، فهو كفيلسوف يعلم قد يكون مخطئًا مئة مرّة. ولكنّ شخصيّته ذاتها لا تظهر إلا على حقيقة مرتدية ازياء الحقيقة، وههنا مجال النّظر والتّأمّل، ففي الفيلسوف شيء لا تنطوي عليه الفلسفة، هذا الشّيء هو الذي مخلد الفلسفة ويولّد العبقريّة. وفي هذا الرّأي يكاد يتبيّن لنا هوى نيتشه وميله لهذين الرّجلين، فهو قد مال إليهما بآثارهما والتّعصّب لهما، ثمّ انقلب هذا الميل والتّعصّب للآثار إلى اعجاب مجرّد بالشّخصيّة، فأحبّهما كرجلين عبقريين منفصلين عن آثارهما ثمّ عمل على أن يتجنّب كل ما يعكّر هذه الصّداقة أو يشوّه اسبابها، ولكنّه اضطرّ إلى نقد ما لا يوائم فكرته نقدًا عامًّا. وأخيرًا اقتربت تلك السّاعة التي وجد فيها أنّ الفواصل

التـي تفصله عنهما هي أكبر من أن تخنق، وألفى أنّ في سـكوته عنها خيانة لنفسـه، فبدأ ينقد آثارهما ويظهر اخطاءهما. وهو في كل ذلك لا يحاول أن يفهمهـما بحقيقتهما ولكنّه عامل على تفهّم نفسـه بالاتّصال بهما؛ وهو بدلاً من أن يصوّر نفسـه بصورتها رأيناه قـد حوّل صورتها إلى صورته، وأذاب ذاتها في ذاته، كالبحر الذي يجول فيه الفرات أجاجًا. وصورة «شوبنهور» التي رسـمها نيتشـه ليس بينها وبين صورة الفيلسـوف الحقيقية مشـابهة؛ وإنّـما هي صـورة للممثّل الأعـلى للفيلسـوف «التراجيدي» كـما يتخيّلها نيتشـه. وهكـذا قال في صـورة «فاغنر» وهو دائمًا لا يعـبّر في كل ما يصف ويـدور إلا عن حلمه الباطن. الآن تبيّن لنيتشـه أنّ هاوية سـحيقة تفصل بينه وبين «شوبنهور» و«فاغنر» وقد تقبّل مذهب التّشاؤم من قبل ليتّخذه سلاحًا يصرع به التفاؤل الخادع، وقد بدا له أنّ نقد الوجود نقدًا مصحوبًا بالتّشـاؤم هـو من واجب كلّ نفـس خالصة، ولكنّه لم يتقبـل تلك النّتائج السّـلبيّة التي استخلصها شـوبنهور، من نظراته، ولم يتقبّل العدم وسلب الحياة كفاية منشـودة في الوجود. ولكن هذا المذهب العدمي الذي يستمرّ فيـه الخطر، قـد لا يكاد يقل مذهب التفاؤل المطلق عنـه خطرًا، فإنّ جيلنا إذا نمـت فيه الرّوح الرّاضية القانعـة والذّات الخانعة، كان هذا منه علامة الوهن والضّعف والانحطاط. تنشـأ في جمل تعـب من الحياة وتصدع من الألم، ويرتـاح إلى الرّاحـة المتمثّلة في العدم، وهكذا بدرت لنيتشـه مسـألة جديدة شغلته طيلة حياته.

ما منشـأ هـذا الانحطاط الحديث؟ مـا العلامات التي سـاعدت على نـشره؟ ومـا داء العدميّة؟ وما دواؤه؟ لم يكد يبلغ هـذه النّقطة حتّى وجد أنّ حكمـه على المعلّمين قد تحوّل من الكل إلى الـكل. وإذا برفيقيه اللذين

كانـا عدّته في مكافحة التّفاؤل يغدوان خصمين عنيفين له، تثقل عداوتهما عليه وعلى المجتمع وأدرك في النّهاية أنّ ثباته على صداقتهما فيه خطر عليه كبـير. فإذا لم يبرأ مـن هذه الصّداقة وتخلّص من تأثيرهـا ومرضها فإنّه لن يتاح له أن يقف أمام نفسـه واعيًا همسـها فأهم نجواها لابسًا لباسها، ولن يتـاح له أن يأتي النّاس بإنسـانه الكامـل الذي أوحته إليـه تعاليمه الجبّارة فيهـا درس من عبقريّـات اليونان، فنفض عنـه هذه الزّخـارف الصّبيانيّة التـي يتحـلّى بها أسـلوب «فاغنـر» ووجد فيه ذلـك الدّليـل الأمين الذي ينفـع المفكّـر الذي ينبغي أن يدرس هذه النّفـس وينحدر إلى أعماقها. فهو اعتنق مذهـب «فاغنر» بادئ ذي بدء ليصل إلى هذه النّفس. والآن يحاول أن ينجـو مـن حبائـل هذا السّـاحر: «إنّ ما يشـغلني الآن هو الشّـفاء.. لم يكـن «فاغنـر» إلا علّة من عللي!» على أنّ الأنديـة الأدبيّة قد ارتاعت لهذا الانقـلاب وهـذه المفاجأة. وأجمعـت كلّها على الجملة على نيتشـه العقوق الذي رأت فيه النّاكث للعهود. وأخذت الأندية تبعث بتأويل شتّى المعنى هذا الانفصال وكلاها أزمعت القول بأنّ نيتشـه كان في الحالة الأولى خير مـن تفهم «فاغنر»، ووقف على دقائق مذهبـه الفنّي وكان تحليله الأوّل له خـير مـا أخرجه ناقد محلّل على هذا الفنـان. وعلت بأنّ ما عراه من مرضه العقلي الذي ساقه إلى قطع علاقاته مع المجتمع، هو الذي ساقه إلى التّنكر لأصدقائه، ولكنّ هذا التعليل تعليل فاسـد يفسـد على الرّجل كلّ فلسفة وهـو الذي كتب نظراته وأعطـى مذهبه حرًّا مفكّرًا مختـارًا. لم يكن مجنونًا ولا مخبو يوم طعن فاغنر، ونال من مذهبه .

أمّـا اصدقاء نيتشـه فهـم يعزون ذلك إلى انخداع نيتشـه بهـذا الفنّان. وهنالـك آراء تقاربت، تجيء طور مع نيتشـه وتارة تحمـل عليه. أمّا الذين

يمقتونـه فهـم ينقمون منـه هذه الشّـخصيّة أو هذه الأنانيّة التـي قادته إلى نكران الصّداقة، زاعمين أنّ شـخصيّة نيتشه لا تودّ أن ترى ظلاً لشخصيّة غيرها، وشـخصيّة نيتشـه في الحقيقة شخصيّة ذاتيّة قويّة، لأنّ الرّجل يرى أنّ الشّـخصيّة هـي كل شيء، يضحّي في سـبيلها بـكلّ شيء، ولا يضحّي بها في سـبيل أيّ شيء. فوجد نيتشـه أنّ شـخصيّته تكاد تفنى في شـخصيّة «فاغنر» وهو الذي التصق به واتّصل لمجرّد الوصول إلى نفسـه وتفهمها. ولم يجعل منه رسولاً هاديًا ولا مثلاً ساميًا. وهكذا أخذت هذه الشّخصيّة الغالبـة تضيـق عليـه ويضيق بهـا، وتخفي صوتـه الحقيقـي، فليضح بكلّ شيء في سـبيل ذاته! ولعلّ نيتشـه أدرك أنّ القوم سيختلفون في تعليل هذا الانقلاب فكتب هذه الرّسالة التي تنطوي على صفاته ولون تفكيره:

«كنا صديقين غريبين .. كنا كمركبين، كلاهما له غايته وله سبيله.. قـد نتلاقى ونرفع أعـلام اللقاء كـما فعلنا. وفي هـذه اللحظة ذاتها قـد رسـا المركبـان في مرفـأ واحـد، يغمرهما شـعاع واحـد، كأنّهما مقدمـان عـلى هدفهـما، وكأنّ هـذا الحـذف واحد عندهمـا، ولكنّ الـضّرورة التي لا تـردّ قد تقـذف مركبينا قذفة جديـدة نحو بحار مختلفـة وانـواء متباينة. وقد تـتراءى ولكن لا نتلاقـى، كم لوحتنا الشّـمس والأمواج! نظـلّ غريبين لأنّ الشّريعـة الغالبة تريد ذلك ولكـنّ صداقتنا القديمة تبقى شـيئًا قدسي. وهكـذا نريد أن نؤمن «بصداقتنـا في النّجـوم» حتّـى في العهـد الـذي يجـب أن نكون فيه خصمـين عـلى الأرض، أليس في هذه الكلمة ما يجعل نيتشـه بريئًا شريفًا ازاء خصميه وأنصار خصميه».

الفصل السادس:

نيتشه الفيلسوف

لـم تكن نهاية عمر نيتشه إلا «معركة» متّصلة الاسباب، يشنّها صاحبها على الدّاء الذي خامره، يصرعه حينًا وحينًا يصرعه وخلال ذلك يطول صراعه ويمتدّ نزاعه، يحول الداء بينه وبين اتمام عمله الذي تصدّى له، ولا يشعر بالمجد الذي صار يركض إليه في أصقاع العالم. هذه الفلسفة الغريبة الشّاذّة قد شكّ عند مناقشتها النقاد الذين لم تتّسع لها عقولهم، فقالوا عنها: «إنّها فلسفة طائشة جاء بها مجنون، قد تمخض بها الجنون فنًّا من قبل!» وهؤلاء قد ظلموا الرّجل ميتًا كما ظلمته الطّبيعة حيًّا، على أنّ شذوذ هذه الفلسفة لا يدعو إلى حسبانها فلسفة مجنونة، فقد كتبها صاحبها واعيًا، وغالب بها ألمه قبل أن يستحيل إلى جنون، ومهما ذهب النّقاد في تعليل جنون نيتشه، أهو جنون اكتسابي أم وراثي؟ فإنّ الرّجل قد استطاع بما أوتي من عبقريّة سامية أن يحدث في صفحة الحياة أمواجًا عنيفة بالحجر الذي ألقاه. وبهذا لا ينبغي لنا أن نعتقد أنّ الجنون أثّر في آثاره، وهو الذي دلّ على وعي خارق في أحد نوباته وأعنف آلامه.

أراد نيتشه آلامه، وعمل على تحمّلها غير مستثقل ولا مستضعف، يحولها إلى الحاجة التي يريدها ويستخلص منها ما يلائم حياته، فإذا لم يكن هذا الرّجل جديرًا بالرّأفة والشّفقة لأنّه لا يريدها، فهو جدير بالاحترام والبطل يحترم مستلئمًا ومكفنًا. أوّل نعمة احتسبها للألم أنّه أنقذه من مهنة التّعليم ودراسة اللغات المندثرة، إذ أخذ يحسّ أنّ هذه المهنة، على الرّغم من شرفها، لا تتلاءم والغرض الذي تتوق إليه روحه. فهو فيلسوف قبل أن يكون عالمًا بدراسة اللغات وأخذ يشعر بأنّ وفاءه لهذه المهنة، دفعه إلى قتل أزهى أيّامه وتعطيل دراساته، فما أثقل اليوم على ظهره هذه الاعباء!

فجـاء الدّاء وجبره على تحطيم كلّ حلقـة تربطه بالماضي الذي أصبح يعدّه غريبًا عنه وهو منه. فجاء فبدّل حياته بحياة ثانية تختلف مظاهرها، وألقاه في عزلة عميقة لا يقرّ فيهـا إلا إلى نفسـه لأنّها حرّمت عليه الانكباب على المطالعـة والانصراف إلى الدّرس. فهو اليوم وحيد مع نفسـه أمام نفسـه، يسمع نداء من كان في أذنه وقر عنهـا.

فرحت اليوم نفسـه بعودته إليها ثمّ بأوبته إلى العزلة والرّاحة الخالدة، هـذه النّفس التي كادت تقتلها الحادثات وتطغـى عليها جبلة المجتمع قد نفضـت عنها الاكفان ورفعت صوتها الرّنان «ما تذوّق يومًا من السّـعادة تذوّقـه خـلال أيّام دائـه، لأنّه عاد إلى نفسـه». وهـذه العـودة إليها كانت شـفاءه وهـذا الشّـفاء يتلوه شـفاؤه المـادي على أنّ الـدّاء لم يزد نيتشـه إلا احـترازًا في النّظـر إلى مسـائل الكـون والحياة وهو عاكف عـلى التّطلع إلى هـذه المبادئ الفلسـفيّة، ولكنّـه يراها بمجموعها جملة مبـادئ هي حقائق بعينهـا؛ اطّلع إليها كأنها ابنة طبع مبدع وشـخصيّة مبدعـة، وممّا ينبغي ان ينظر إليه بعين الانتباه مسألة تأثير الصّحة والسّقم في العقل البشري، فإذا تـألّم جسـدنا وهو العقل الاكبر فالعقل الصّغير لا بـدّ متأثر بما نزل بالعقل الكبير، وإذ ذاك يسـأل السّائل: «هل هذا المذهب علامات صحة صاحبه أو انحطاطه؟»

وقد أيقن نيتشـه بأنّ السّـقم زاده احترامًا وانتباهًا من سـلطة الاخيلة والاوهـام التي تتولّد عـادة عند من راقتهم صفحة الحيـاة وبهجة الدّنيـا. أجل! إنني أدرك أنّ الألم لا يحمل الإنسـان إلى المقام الأحسن، ولكن الألم ينحدر بنا إلى اعماقنا، والإنسان الذي يريد أن يفرض على نفسه قوّة يقهر بها

نفسه، تخرج منها ارادته المتمرّنة ظافرة كما يصنع الهندي المستسلم لأكوان من العذاب أو أن يستسلم لزهد مطلق واعتزال كامل وهجر للإرادة. والإنسان الذي يتمكّن من هذا الامتحان يقضيه من غير ضعف، يتعلّم منه أن يتأمّل مسائل الحياة بوضوح وجلاء لا يخدعه عن حقيقتها شيء، فهو يأبى أنّ تصرفه عن حقيقة الوجود هذه التّشابيه والخزعبلات المغرية، وكأنّ دافعًا للانتقام والثأر من الحياة يتحرّك في طوايا نفسه. يريد أن يستبدل بها آلامًا تتولّد له حين يقابلها وجهًا لوجه، يميط عن وجهها النّقاب، وينزع كلّ زينة خادعة تتبرّج بها لإغواء النّاس؛ وهو إذا أحبّ الحياة بعد ذلك فإنّه يحبّها كالعاشق الغيور المتحرّز، حبّك لامرأة خدعتك وأصبحت مثار الشّك عندك.

يلاحظ نيتشه أنّ الألم هو الذي جعله متفائلاً، والسّقم قد علمه ما يبلغ تأثير الانحطاط الجسماني في عقل المفكر. ولاحظ به كيف يسعى الألم إلى قهر عزّة العقل الفلسفي ورد هذه العزّة ضعفًا وذلّة وحزنًا وكآبة وأدرك ماهيّة الموضوعات والزّوايا السّماويّة التي يلجأ إليها عقل المرضى والمنحطّين سعيًا وراء ما يخفّف عنهم من فاقتهم وكآبتها. أدرك بعد هذا كلّه أن كل فلسفة تضع السّلم فوق الحرب وكلّ فضيلة تعطي السّعادة تحديدًا سلبيًا، وكلّ علم من علوم ما وراء الطّبيعة يرى أنّ في مراحل الاعتدال والرّاحة التّامّة والأمل الدّيني في عالم خير من هذا العالم، وفي برزخ غير هذا البرزخ يرى في هذا كلّه حدًّا للرّفعة والسّمو؛ إنّ هذه الفلسفة مهما كانت مظاهرها فهي تحمل طابع الفساد والانحطاط، وآمن بأنّه فهم أنّ كل هذه المذاهب الدّاعية إلى التّشاؤم والرّكون المطلق تدلّ على أنّ اصحابها الذين وضعوها كانوا في حالة مرض عضوي ولّما أراد

هذا المريض أن يشفى ركن إلى التفاؤل. وقد نفعته أيام البلاء بالوقوف على أسباب التشاؤم، فانصبّ على الدّاء بكلّ ما يحوي جسده ونفسه. عاد متفائلاً، وعادت إليه العافية وإلا اكتشفت حياة جديدة.. اكتشفت نفسي. إنني قد جرعت الأشياء الكبيرة كما رشفت الصّغيرة منها، وجعلت من رغبتي في الشّفاء والحياة كلّ فلسفتي. حذار جميعًا! إنّ الاعوام التي انحطّت فيها حيويّتي هي الاعوام التي طلقت فيها تشاؤمي، وغريزة الوقاية هي التي صرفت عنّي فلسفة اليأس والفاقة.

كانت أولى مآثر نيتشه اللامعة في الفلسفة «نشأة المأساة» فهي المثل الأعلى الذي وجده في البطل «ايشيل» والفيلسوف «شوبنهور» والفنان «فاغنر». وفي أخريات أيّامه جدّد نيتشه العهد لمثله الأعلى الذي تكرّر في «السوبرمان» الإنسان الكامل – وبين هذين العصرين تمتدّ هاوية عميقة تفصل بين هاتين القمّتين: عصر سلب ونقد مفرط. إنّ نيتشه قد عجّل بالبناء وكأنّي به قد شعر بأنّ مواد بنائه لم تكن صلبة بالمقدار الذي يجب أن تكون عليه، ألم يحس في نشأته الأولى أنّ في أصول «شوبنهور» «وفاغنر» ما لا يمتّ بأصوله ولا يلتقي مع فكرته، فعمل على اقتلاع ما لا يتّصل به واستخلاص ما داخل فكرته ممّا لا يلائمها.

وفي العصر الثاني رأيناه يقتفي سبيله الذي انتهجه في البدء بعد أن حطّم ما حطّم من قيم فاسدة ونظم معفنة دون ما رأفة ولا شفقة. وبهذا انتقل من مرحلة السّلب إلى مرحلة الاثبات، واستبدل جرأة النّاقد بذهول النّبي. وكان من آثار ذلك العهد الأوّل «أشياء إنسانيّة» و«آراء مختلفة» و«المسافر وظله» و«فجر» وكلها سطّرت يوم كانت الحادثات تهدّ صحّة

نيتشه وكلّها وليدة ذلك الحذر الأعمى من الوجود. هذا الحذر الذي ولده الدّاء في نفسه، فالرّيح التي تّهب حوله باردة قاتمة ونيتشه يلوح كالمهدّم العابث الذي زال من صدره عامل الإشفاق، يعمل على تهديم أسوار الشرائع وتحطيم أبراج الاخلاق؛ ففي كتابه «أشياء إنسانيّة» يحارب التّشاؤم ويسطو على معلّمه شوبنهور، جاحدًا مذهبه، كافرًا بتعاليمه، لا يؤمن بأنّ الارادة شيء قائم بذاته، نافيًا القول بإمكان «شيء يقوم بذاته» يقاتل عاطفة الرّأفة والشّفقة، ويرذل فضيلة الزّهد. هذه الفضيلة التي تجرّد الإنسان من شخصيّته وأنانيّته، وفي هذا الكتاب أصبح لا يرى غاية الإنسانيّة توليد العبقريّة كما جهر من قبل، ولكنّها بمجموعها تمشي ولا غاية تسعى إليها.

وفي كتابه «المسافر وظله» يعلن ذلك الظّل الذي يلحق الاشياء حين تشرق عليها شمس المعرفة، ويعتقد أنّ الأشياء لا تدرس واضحة جليّة عندما، يحدّد دارسوها دراستها على ضوء المعرفة «المثالية» لأنّه لا يبدو إذ ذاك من الأشياء إلا أجزاؤها المضيئة، أما الأجزاء القاتمة فتبقى بعيدة عن نظر المجتلي، وهكذا ينبغي للمفكّر الحقيقي الذي يرغب بأن تكون له فكرة تامّة عن الحقيقة أن يتأمّلها عن وجهها الخفي.

وفي كتابه «فجر» يخضع نيتشه لنقده مسألة «القيم والنظم الأخلاقية» التي يقدّسها الناس ويحترمون قواعدها. هو يرى أنّ الإيمان بالواجب ليس بنظام سماوي ولا بتعليم أوحته السّماء على البشر، وليس هنالك قاعدة لتمييز الخير من الشّر، وهذه الشّريعة الاخلاقيّة التي تجبر الإنسان على أن يكون صادقًا أمام نفسه في كلّ شأن، قد تنتهي بالاضمحلال. فقد

يغـدو الإنسـان بالأخلاق رديء الأخلاق، كما يغـدو بالدّين زنديقًا، لأنّ اخلاصـه لعقله يزجيـه إلى أن يقذف بنقده الاخلاق ذاتهـا، وأن يكون في ريب من نظمها.

المثل الذي اسـتخلصه نيتشـه مـن الوجود أصبح يدنـو الآن من المثل الواقعـي، فقـد يرى أنّ كل كائـن في الثّلاثين من أعوامـه الأولى تتولّد فيه حركة قد تحتاج الإنسـانيّة إلى ثلاثين ألف سـنة لتحقيقها. الإنسـان الأوّل ينشـأ في حداثته مؤمنًـا متديّنًا، ثمّ فاقـدًا لإيمانه بالله والخلـود، مأخوذًا بما يزيّن له، العلم النّظري، ثمّ يفقد العلم النّظري تأثيره، حين يمسي لا يشبع نفسـه ولا يكفي عقله. وفي النّهاية تسـتيقظ فيه الرّوح العلميّة فتقوده إلى دراسة التّاريخ والطّبيعة درسًا صحيحًا. وفي إنسان العلم وفي الرّوح الحر المفلـت مـن كلّ وهم زائـل والمنعتق من كلّ اعتقاد باطل في هذا الإنسـان يرى نيتشـه الإنسـانيّة المتسـامية. فالرّوح الحـرّة هي متشـائمة تعتمد على عقله، وهي مفتقرة إلى صحّة أدبيّة قويّة لا غش فيهـا، تعمل على الحيلولة بينه وبين الاستسـلام إلى اليأس والفناء. وليس من السّـهل على الإنسـان أن يمزّق عن جسـده اثواب الخطأ الملتفة عليه في كلّ جانب ليرى الحقيقة ماثلـة أمام عينيـه، «فالحياة الإنسـانيّة غارقة بأكملهـا في الأخطاء، وليس باسـتطاعة الفرد أن ينتشـل نفسـه من هذه الهاوية إذا لم يكن خصمًا قاسـيًا عـلى ماضيه، كثير السّـخرية من الاهواء التي تدفعنا إلى الإيمان بالمسـتقبل وبالسّـعادة التّاليـة». وبهذا يسـتطيع إذا كان جريئًا صـافي الطّبع أن يجد في العلم ما يعمل على استنقاذ روحه من اليأس، فإنّ المعرفة المبطّنة بالتّشاؤم تنقـذه من السّـأم الذي يأكل قلوب سـواد النّاس حتّـى إذا قدر أن يتحرّر مـن كلّ مـا يحترمه النّاس زاده تمتّعه بالأشـياء طربًا وجمـالاً. فهو يهوى أن

يحلّق فوق الاضطراب البشري لا يخفق قلبه رعبًا فوق العادات والاوهام والعقائد، هو يحيا لكي يفهم فهمًا صحيحًا، وأنّ أسمى مكافأة عنده هي أن يتفهم في نفسه وفي غيره من الاكوان هذه النّواميس الضّروريّة المتجلية في حركات الكون، وأن يستدل كالمنجم على مستقبل الذّريّة البشريّة.

وهل تعتقد أنّ مثل هذه الحياة المتجلبية بمثل هذه الغابة باعثة للفناء خالية من اللذة؟ إنّك لم تدرك أنّ السّحب الثّقيلة، هي اثداء ضخمة ترضع منها افاويق عذبة حلوة لتقبل الشّيخوخة؛ فتفهم بنفسك كيف تلبّي نداء الطبيعة، نداء هذه الطّبيعة التي توجّه العالم إلى السّرور. هذه الحياة التي اتّخذت الشّيخوخة سنامها والحكمة ذروتها. وهل الحكمة إلا ذلك الشّعاع المنبثق والطبيعة – قد تقترب السّاعة فلا تهتج ولتكن حركتك الاخيرة.. حين يتراكم ضباب الموت – جهدًا تبذله وتوقانًا نزاعًا إلى النّور لتكن تنهّداتك الأخيرة انشودة انتصار الحكمة .

منذ عام ١٨٨٢ بدأت لهجة نيتشه تتبدّل تبدلاً محسوسًا على أنّه ثابر على نضاله ومحاربته لعقائد جيله حتّى النّهاية، فكتبه الاخيرة إنّما هي غارة شعواء على المسيحيّة وما تحمله من زهد وتقشّف. ولكنّ هذه الصّيحات التي يرسلها قويّة عالية أصبح يمازجها قليل من الالحان العاطفيّة، ألحان نشيد الانتصار. عاد نيتشه إلى صحّته بعد أن قضى أيّام علّة وسأم، يرتقب الموت في كلّ فجر يتنفّس، وفي كلّ ليل يتعسعس عاد إليه رجاء جديد وتنفّس جديد، والأرض أرحب بكثير من كفّة الحابل. يقول في خاتمة كتابه (العلم الطرب): «إنّ هذا الكتاب هو صيحة طرب بعد أيّام طويلة مكفّنة بالبؤس والعجز وأغنية مرح تتهادى فيها أصوات قوى بعثت بعثًا

جديـدًا، والحـان إيهان، واسـع بالغد وما بعده، بمسـتقبل مفتوح لي يحمل طبه حوادث قريبـة، ينطوي على بحـار حرّة وغابات جديدة تجذبني نحو مـا أسـتطيع أن أبلغه وأقدر أن أؤمن به». وهكذا تقشـع من سـماء نيتشـه سحاب اليأس القاتم، فبانت له سماء صافية مضيئة، رحل الشّتاء المتجمّد، وخفـق قلب ربيـع جديد. وفي هذه الخطرات الجديـدة هيمنت عليه عادة الشّك في قيمة ذلك الرّوح الحر الذي بشر به وجعل منه مثالاً عاليًا.

إنّ هذا الرّوح الحر عابس ينقصه روح الطّرب، وقد جعل منه الألم كائنًا كئيبًا، وهذا الرّوح لا يزال ثقيلا لم يتعلّم أن يرقص وأن يلعب ويفرح حرًّا طربًا وثابًا على امواج الحيـاة. إنّ هذه الفكرة خلقت لنيتشـه خيالاً جديدًا انطـوى على الصّورة الرّائعـة التي وجدها في نبيّه «زراداشـت» هذا النبي الـذي قـضى في الصّحراء عـشرة أعوام، مرتاحًـا لعزلته وفكرتـه، ثمّ نزل إلى النّـاس يلقّنهم الدّيانة الجديدة، ديانة «السّـوبرمان» والعودة الخالدة، وهو يجمع حوله في مغاراته المنعزلة نماذج متقاربة صافية للإنسـانيّة المتألمة السّامية. إنّ رجال الرّغبة الكبيرة والاحتقار الكبير والسّأم الكبير؛ هؤلاء الرّجال يجب أن يفسـحوا مكانًا للسّـوبرمان الذي يشـفيهم من تشاؤمهم ويضيء لأعينهم آفاق المسـتقبل، ثمّ يموت في اللحظة التي يبلغ فيها أعلى ذروة الحكمة، في اللحظة التي تبلغ فيها شـمس وجوده سـمتها الأعلى في الهاجـرة الكبرى معلنًا بموتـه انتصار مذهبه. وقد رأينـا توصّلاً إلى تحليل فلسـفة نيتشه تحليلاً منطقيًّا أن نقسـمها إلى قسمين: النّاحية السّلبية، وهي تنطـوي على نقد الإنسـان الحالي ونقـد ايمانه وغريزته والنّاحيـة الايجابيّة، يبحث فيها السّـوبرمان وعودته الخالدة، وبهذا تبدو أفكار نيتشه مرصوفة ضمن نظام مذهبي لم تعرف به من قبل لأنّ هذه الافكار في الآونة الأخيرة

لم تثبت على حال معهودة فهي سريعة التّبدّل وسريعة التّنقل لا يريد أن يكون فيلسوف مدرسة لأنّ الحقيقة عنده لا خلاف فيها. على أنّه لم يحجم عن مهاجمة الآراء التي يراها فاسدة بأدلّة باهرة وحجّة منطقيّة. (إنّ غريزتي تريني في هذا الإنسان أو في هذه الكتلة من النّاس جماعة منحطّة تدعو للاحتقار. وفي هذا المذهب أو في هذا الإيمان جرثومة مرض، إنّني احاربهم واكافحهم كما يكافح الخطر والمرض، فإذا صحّ أنّني أنصر مذهبًا حيًّا وخصومي ينصرون مذهبًا فاسدًا؛ فالنّصر لا ريب معاودي، وفي الحالة المعاكسة لا يأتيني إلا الخسران. وبما أنّني لا أريد إلا شيئًا واحدًا هو انتصار الحياة، أراني أطرب بانكساراتي كما أطرب بانتصاراتي وكلّ ما وراء ذلك عندي سواء). أوليس من الغباء أن نشيد مذهبًا منطقيًّا لفلسفة نيتشه ضمن هذه البوادر، شأن فلسفة «كانت وشوبنهور»؟ وليس للمنطق كبير شأن في هذه الفلسفة على أنّ نيتشه إذا صحّ حدسي كان يأتي المسألة ويدرسها من جوانب مختلفة، يتلقنّها ثمّ يدرسها ثمّ يفحصها حتّى تحين اللحظة التي يطلق فيها حكمه الأخير. فإذا درست آثاره أثرًا أثرًا ألفيت أنّ الموضوعات نفسها تطوى وتنشر ومن وراء ذلك عقل نيتشه العظيم. وإذا لم يأخذ نيتشه بالمنطق ونظامه الدّقيق كما يأخذ به أرباب الفلسفة فليس معنى ذلك أنّ الرّجل خلت احكامه منها، أو أنّ عقله لم يكن منطقيًّا. فالرّجل حادّ الفكر وفلسفته من حيث المجموع يربط بينها نظام منطقي دقيق ولكنّ صحّته السّيّئة حالت بينه وبين ترتيبها ترتيبًا فنيًّا، فجاءت مقاطع مفكّكة بأجزائها كاملة بكلّيتها، مقاطع أودع فيها صاحبها كلّ نفسه وقلبه.

الفصل السابع:

النّاحية السّلبيّة من مذهب نيتشه

الإنسان:

كلّ جيل أو كلّ حضارة مرتبطة بسلسلة من القيم الاجتماعيّة تؤمن بأنّ هنالك شيئًا أسمى من شيء وأنّ عملاً أفضل من عمل. وترى أنّ الحقيقة أسمى من الضّلال، وأنّ عاطفة الرّأفة أفضل من عاطفة القسوة، وواجب التاريخ البشري هو تعيين هذه المقامات والفصل بينها، لأنّ هذه المقامات المنطوية على التقاليد الاجتماعيّة هي التي تسيطر على حياة الافراد والجماعات، وتؤثّر في كلّ أحكامنا ومناقشاتنا. وجدير بها، والحالة هذه، أن تشغل عقل الفيلسوف وأن تستبدّ بأكثر عقله وفراغه. نظر نيتشه إلى هذه المقامات وتأمّلها مليًّا، فجاءت نتيجة تأمّله أنّ هذه المقامات التي تتعاقب عليها الحياة الاوروبيّة اليوم لهي مقامات فاسدة يجب تنكيتها لأنّها لا تصلح للبقاء، وبهذا يتبدّل مجرى هذه العكازات التي تتوكّأ عليها أحكامنا وافكارنا.

قد نرى نيتشه في إحدى نوبات ألمه العنيف قبل ضياع عقله ينذر بخراب مروّع لهذه البشرية (إنّني أحلف لكم بأنّ الأرض ستتلوى متشنّجة خلال عامين اثنين.. إنّني بنفسي قضاء وقدر). إنّ الإنسان الحالي يضع في قائمة القيم الاجتماعيّة عددًا من القيم المطلقة العالية التي لا يمسّها سوء، ولا يشرف عليها عقل، ولا يتطاول إليها نقاش، وبواسطة هذه القيم يسعى إلى تبيّن الحقيقة منها القيم المعروفة مثلاً عنصر الخير والحقيقة. وقديمًا وحديثًا نرى أنّ عبادة الحقيقة والصّدق هي رأس عكّازنا وإيماننا. ناهيك أنّ المفكّرين أنفسهم وقفوا متهيّبين ازاء مسألة الخير والشر حين عرضت

لهـم، وقد ظلوا متردّديـن أمامهـا، راعـين للتّقاليد التـي توارثوها عنهـا. فكانت قد افترضت وجودها.

وجـد شـوبنهور عقـدة عامـة، جميـع النـاس فيهـا سـواء. فـلا تسيء لأخيك، وأغث اخوانك ما استطعت. وهكذا تطامن الفلاسفة على هذه العقدة ولم يهزّوا شـجرتها وكلّهم تجمهروا ليدرسـوا رأس الأخلاق وهذا الضّمير الخلقي الذي اصطلح البشر عـامتهم على احترامه والذي لا يزال يسـيطر على الاجيال الحاليّة. أعلن نيتشـه الحرب على هذا التّعبّد للحقيقة وهـذه العبـادة لشريعة الأخلاق وبدلاً من أن يتقبّلها قبولاً لا مفر منه ولا وجه لمقابلته بجدل، رأيناه يقابلها كمسألة يدرس وجوهها، ويحلّ مبهمها ويفـترض ما يفترض في سـبيل تفهّمهـا، أليس من حقّه أن يتسـاءل ولماذا كانـت الحقيقـة خيرًا وأحرى؟ ولمـاذا كان الخير أجدر مـن الشّر بالأخذ؟ ثمّ حلّ هذه المسـألة بذات الجرأة التي ظهر بها جاعلاً قاعدة الإنسان الحر هذه الكلمة المأثورة «لا شيء حقيقي في الوجود، كلّ شيء حلّ للإنسان». ومـا هذه الكلمات النّظرية التي تتردد بحروف مختلفة وأسـاء متباينة دون أن يخرج معناها بخروج مبناها إلا كلمات ابتدعها الخيال وثبتها الوهـم.

أمّـا الحقيقة الجديـرة بالنّظر، الحقيقـة التي ينبغي لنـا أن نعرفها، فهي حقيقة عالم رغائبنا واهوائنا. فكلّ ما تحتوي عليه حياتنـا وارادتنا وفكرتنا هـو في الحقيقـة نتاج ما فينـا من الغرائز الحاكمة وهـذه الغرائز المتفرقة إنّما تتشـعّب بها السّـبل إلى غريزة واحدة، لا ترد إلا إليها ولا تصدر إلا عنها. هـذه الغريزة هـي إرادة القوّة، هـذه الارادة التي تغنينا لـو رجعنا إليها في

تحليل جميع مظاهر الحياة التي تحيط بنا ونحيط بها. فكلّ كائن سواء كان من عالم الحيوان أو النّبات أو الإنسان، إنّما يسعى إلى بسط سلطانه على غيره من الكائنات حتّى يخضع له ما يخضع منها. وإنّ هذه الحروب القائمة وهذه الجهود الدّائمة، حيث لا تستقر حياة موجود إلا ببسط نفوذها ونشر قواها، هي الشّريعة الأساسية في الوجود، وفي كلّ مظاهر الحياة أنى كانت – ترى الغريزة قائدها وهاديها. فإذا رأيت إنسانًا ما يجنح بطبعه إلى حب الفضيلة والفن والحقيقة فهذا الجنوح إنّما قام بفضل هذه الغريزة الطّبيعية التي رأت من خيرها أن تسلك هذا السّبيل، وهكذا قلّ في الفضيلة الدّينيّة التي تجد بها بعض النّفوس اقواتها وطعام غرائزها. وفي الحقيقة التي يضحّي العالم في سبيلها بأزهى عمره تسوقه إليها ارادة القوّة التي تعمل على بسط سلطانها، ولكنّ الإنسان مال إلى عبادة ما ابتدعه بنفسه «كمثل أعلى» ليشبع حاجة فيه من حاجاته، فبدلاً من أن يقول: «سأحيا أنا لإشباع غرائزي، وسأتحرّى عن الخير والحقيقة تبعًا لهذه الشّريعة حيث تدفعني ارادة قوّتي»، قال: «إنّما الخير والحقيقة شيئان ينبغي أن يطلبا لنفسيهما. يجب صنع الخير لأنّه الخير ويجب نشدان الحقيقة حبًّا للحقيقة وحياة الإنسان ليس لها قيمة إلا بقدر ما تنكر من انانيتها وذاتيّتها في سبيل خدمة هذا المثل الأعلى، فلتقبل إذًا كلّ ميولها الغريزية في سبيل هذا المثل، معتقدة أنّ الانانية هي شرّ كبير ورذيلة خطرة».

على أنّ هذا الإنسان نفسه الذي قدر هذا التقدير إنّما تسوقه غريزة، لأنّ الغريزة هي قائدة النفوس الى ما تعمل، ولكنّ هذه الغريزة غريزة فاسدة. على أنّ هذه الغرائزيّة ليست في الناس سواء فبعضها معتدلة تعمل

على تغذية حياتها وصيانة نموّها، وبعضها فاسـدة معتلة تعمل على اخفاء مادّتها الحيويّة. وللعلل الجسـديّة تأثير كبير فيهـا قد يتداركها الطّبيب قبل أن تضوي الجسد وهنالك علل «الشّخصيّة» ولهذه العلل أسباب طبيعيّة، وبحسـب هذه الغرائز المختلفة المسيطرة على الإنسان يأتي صاحبها صالحًا أو طالحـًا، مثـلاً عاليًـا أو سـافلاً. إنّ هنالـك رجــالاً خالصي الاجسـام والارواح يقولـون: «نعم للوجود!» هم سـعداء ناعمـون بحياتهم، وهم ممّـن يجدر بالحياة أن تخلد لهـم، وهنالك رجـال منحطّـون ضعفاء مرضى قـد أظلمت غريزتهم وماتت حيويّتهم، يقولـون: «لا للوجود!» يجنحون إلى الموت والفناء، لا غاية لهم يتحرّون عنها، وليس لهم – والحالة هذه أن يتحـرّوا عن بقائهم في الوجود، وهذه سـنّة طبيعيّـة تنطبق على الحياة التي لا تتمـرّد. والحيـاة – في كل صقـع – سـائرة في طريق التّقـدّم أو في طريق الانحطـاط. والإنسـان فيها مثل غرسـة، طـورًا تحيا ذابلة يائسـة، وطورًا تتفتّح مشرقة زاهية، تسمو منها فروع عالية.

يقـول نيتشـه مبيّنًـا نظرته في مجموعـة القيم الاجتماعيّـة: «أنا لا أدري إذا كانـت الحياة بذاتها جميلة أو قبيحـة لا شيء عندي باطل إلا هذا النّزاع المسـتمر بـين المتفائلـين والمتشـائمين. وأيّ إنسـان في الوجـود يحـقّ له أن يقـدّر قيمـة الحيـاة؟ أمّا الأحيـاء فلا يقـدرون لأنّهم فريق مـن المتجادلين المتخاصـمين. والامـوات – وإنّهم لأجـدر بألا يجيبوا لأنّهـم أموات. فلا أحد قـادر على ابداء قيمة الحياة، وإنني لأجهل كلّ الجهل إذا كان وجودي خيرًا أو عدمي ولكنّي في اللحظة التي أحيا فيها الآن أريد أن تكون الحياة فيّاضـة مضيئـة لامعة في نفسي وخـارج نفسي. فأقـول إذ ذاك نعم – لكلّ

مـا يجمّل الحياة ويجعلها جديرة بأن تحيـا. وإذا تبيّن لي أنّ الضّلال والوهم يسـاعدانني على تذوّق الحياة أقول: نعم للضّـلال والوهم، وإذا بدا لي أنّ الصّفات السّـيّئة مهما كانت ألوانها تسـاعدني على انتصار حيويّة الإنسـان أقـول: نعـم للخطيئة والشر، وإذا اتّضـح لي أنّ الألم هو أنجع من السّرور في تهذيب النّوع الإنسـاني أقول: نعم للألم وأقول لا لكلّ ما يمسخ حيويّة الشّـجرة الانسـانية. وإذا اكتشـفت أنّ الحقيقة والفضيلـة والخير وكلّ ما اصطلح البشر على احترامه من تقاليد وشرائع تضرّ بالحياة أقول: لا للعلم والمعرفة والخير».

يبحـث الآن نيتشـه كيـف نشـأت بـين النّاس هـذه القيـم الاجتماعيّة ويصـوّر التأثـير الـذي تركتـه في روح الرّجل الغربي الحديث نقب نيتشـه في أصـول المذاهب الخلقيّة التـي تواضع عليهـا البـشر فألفى أنّ اصولها المتشابهة تعود إلى فضيلتين اثنتين توزّعت عنها كلّ الفضائل فضيلة الأسياد والسّـلالات القويّـة الحاكمة، وفضيلـة العبيد والضّعفـاء الاذلاء. وإنك لواجد في منشـأ الحضارة الاوروبيّة هذا العمل الذي ولد هذين المذهبين. فهناك طائفة محبّة للقتال وعصابة من الرّجال المفترسين الذين يسطون على طائفة جـانحة للسّلم، نافرة من الحرب كما هو الأمر في الحضارة اليونانيـّة الرّومانيّة، التي تلاشت ازاء هجمات الاقوام الجرمانيّة. إنّ الرّجل الشّديد المعتمد على نفسه، تموج في صدره رغبة بتعيين قيم الناس والأشياء بنفسه، وليسـت فضيلته إلا بهجته الرّاقصة بشـعوره بقوّته وكماله يدعو «حسـنًا» من كان يماثله شرفًا وسيادة، ويدعو «رديئًا» من يختلف عنه.

الخير عنده ما هو إلا مجموعة تلك الصّفات الطّيّبة والخلقيّة التي يقدرها في نفسه وفي نفسه إن يكون قويًّا قديرًا. يعرف أن يخضع غيره ويخضع نفسه، يقسو على نفسه كما يقسو على سواه. يقدّس هذه الصّفات عند الآخرين ويحتقر الضّعف والجبن حيث ظهرا عاطفة الشفقة والنزاهة؛ ومن كلّ الفضائل السّائدة اليوم، لأنّه لا يراها صفات تليق بسيّد يعجب بالقوّة والقسوة والخداع، لأنّ هذه الصّفات تحقّق له ظفره في النّضال. يحترم الميثاق عند أمثاله الاقوياء، ويجد نفسه في حلّ مع العبيد الضّعفاء، ينكّل بهم إذا أراد نكالاً، ويسعدهم إذا أراد اسعادهم، له الأمر في أمرهم. يبذل روحه في سبيل قائده وأميره، ويكرم شيخ قبيلته، ويحترم تقاليد أهله. ألا إنّ الفضيلة الارستقراطيّة لفضيلة قاسية متعصّبة، ولّما كان الشّرفاء أقليّة ضئيلة في جحافل كثيرة تتمنّى الايقاع بها، فعليهم أن يصونوا صفاتهم الخاصّة التي تضمن لهم الفوز، وتقاليدهم التي اصطلحوا عليها في زواجهم وتربية أبنائهم وارتباط بعضهم ببعض هي من التّقاليد العاملة على وارتباط صيانة ذريّتهم من الأخطار. لهذه الذّريّة الارستقراطيّة إلهها الذي تتجسّد فيه كلّ فضائلها التي قادتها إلى القوّة وإلى هذا المظهر الذي بدت به. إنّ هذا الاله - ارادة القوّة الذي ساق الزّعماء إلى السّلطة، وجعل منهم اقوياء سعداء، والعبادة التي يقومون له بها هي تفسير ابتهاجهم بالحياة على النّمط الذي يفهمون منه أنّهم جميلون اقوياء.

هذه الفضيلة تختلف جد الاختلاف عن فضيلة العبيد، والضّعفاء الاذلاء، وإذا كانت الكبرياء والبهجة العاطفة التي تموج في صدور

الأسياد، فلا عجب إذا نما في صدور الضّعفاء التّشاؤم، ومقت الحياة، وكره الاقوياء. الاقوياء يكيد بعضهم لبعض أمّا الضّعيف الغريب يتصدّى لهم فويل له، لأنّ غريزتهم في البأس والقوّة لا تشبع إلا بسحقه لأنّهم يعتقدون أنّهم بما فعلوا أتوا عملاً جليلاً يحقّ لهم به أن يفدوا على أفواه الشعراء أسماء مردّدة. وهم – في ناظر هذا الغريب المغلوب على أمره – شياطين وقردة؛ تحمل الرّعب والهول للآمنين. إنّ جرأة هذه الطائفة وجنونها وقسوتها، واحتقارها للأمان والحياة واغتباطها العميق بالتّهديم وظفرها، كلّ هذه الصّفات ينعتها أولئك المقهورون بالبربر والبربريّة، وهكذا رجل القوّة والبأس والرّجولة في مذهب فضيلة الأسياد يصبح رجل اللؤم والرّداءة في مذهب فضيلة العبيد والرّديء الشّرير – في عرف الضعيف – هو كلّ من ارتدى رداء القسوة والعنف والرّعب. والجميل – عنده – كلّ هذه الفضائل التي يحتقرها الأسياد؛ الفضائل التي تخفّف من شدّة الظلم، وتمنع ارهاق المظلومين وترأف بالبائسين المتألّمين؛ فضائل الشّفقة والرّقّة والصّبر والتّواضع والإحسان فضائله. إنّ العظيم الذي كان محاربًا مخيفًا قويًّا في شريعة الأسياد، يحول في شريعة العبيد هادئًا حليمًا، ويصبح جديرًا بالصّغار، لأنّه بالغ في توانيه عن القتال، وبالغ في لبسه ثوب المساكين.

الآن لننظر في هذه القيم الاجتماعيّة التي أنشأها العبيد، فإنّ الشّريعة المسيحيّة وفضائلها تولّدت في تلك البيئة، وعصابة العبيد والضّعفاء والمنحطّين وجدت زعيمها في الكاهن، ومن هو الكاهن؟ ينبغي للكاهن أن يكون «منحطًّا» ليمكنه تفهّم رغائب شعبه المريض، وهو بعد هذا

يجب أن يصون سلطته وزعامته لتتّجه إليه ثقة المتألّمين، ويكون حارسهم الأمين المسيطر عليهم، وإلههم الذي منه يخشون. وهي مهنة تستلزم منه أنّ الضعفاء من الاقوياء، ويعلن العداوة بينه وبين الاسياد عداوة سلاحها سلاح الضّعيف؛ مراوغة وكذب ورياء فيحول بنفسه حيوانًا مفترسًا مروعًا كالحيوانات المفترسة التي يحاربها، ولا تقف مهنته عند هذا فحسب، فهو مضطر إلى أن يحرس نفسه ومن النّوازع السّيّئة التي تمشي عادة في الشّعوب المريضة، يقاتل بحكمة وقسوة كل ما يخيّل إليه أنّه فوضى أو تفسّخ أو انحلال، يلمس هذه النّوازع الملتهبة ويزيدها ضرامًا. يعود ضرر منها على القطيع وعلى راعي القطيع تكون هذه المهنة نافعة من وجه، لأنّها تهذّب بعض المفاسد، وضارّة من وجهة لأنّها تقف عثرة في سبيل حركة التّقدّم الطّبيعي ألا نجد «المرفأ» المرفأ الأمين الذي تأوي إليه هذه السّفن المشحونة بالمرضى والمتألمين، هو الموت... الموت الذي يسكن كلّ الآلام ويذهب بكلّ الأوجاع؟ وهؤلاء الذين أظلمت في نفوسهم قوّة الحياة تبقى قوّة الارادة عندهم متيقّظة تعارك الفناء وتناضل العدم، وهي التي شوّهت معنى الحياة عندهم تمدّهم بقواعد للحياة جديدة، وحيل تعمل على تسكين آلامهم تخدعهم عن حقيقة المهم، فيحسّ الكاهن انتفاعًا بهذه الغريزة فيسوقها ويديرها ويثيرها حتّى يجعل منها آلة سلطته وزعامته، فيصبح زعيم جماعة لا تحصى من المرضى والمنحطّين وما الثّمن يا ترى؟

نشأت ذرية الكهان بين اليهود، وبينهم هبّت ثورة العبيد، واندلعت نيرانها على المبادئ الارستقراطيّة. نقموا على المبادئ القائلة بأنّ الصّالح

والشّريف والقوي والجميل والسّعيد هم الذين تحبّهم الآلهة، وعملوا على دحضها بمنطق قوي. قالوا أنّ الضّعفاء والعجزة والاشقياء والبؤساء هم الصّالحون وحدهم، وأنّ المتألّمين والتّعساء والمرضى والقبيحين هم وحدهم المقرّبون إلى الله، ولهم وحدهم أعدّت مساكن النّعيم، أمّا النّبلاء والجبّارون الاقوياء فهم الجاحدون القاسون، وهم في تلك الدار المخذولون والأشقون.

جاءت المسيحية فورثت عن اليهوديّة هذا الميراث. وأكمل الكاهن المسيحي ما بشر به الكاهن اليهودي وهنا غبر عشرون قرنًا وهو الظّافر المنتصر. فكان أوّل مشهد من ذلك الانقلاب مسألة النّفس والارادة الحرّة المختارة. وفي الحقيقة لا نفس منسلخة عن جسد، ولا وجود للإرادة الحرّة، وقد تكون ارادة بلا حرّيّة ولا اختيار وإنّما هنالك ارادات قويّة تقوم بأعمال ذات قيمة، وارادات ضعيفة عملها ضئيل، آراء كالرّعد يقصف، هي في الحقيقة فكرة واحدة ترتدي أثوابًا مختلفة. فالرعد ليس بشيء ذاتي يقدّر على القصف وعلى غير القصف إنّه رعد حين يقصف؛ كذلك شأن مجموعة القوّات المتجلّية في الرّجل القوي لا تبدو ولا تظهر إلا بهذه المظاهر. والعقل الشعبي استطاع بواسطة الافتراض الاختياري أن يفرق بين الكائن والحادث وبين الارادة ومظاهرها، وافترض أنّ وراء أعمال البشر ووراء ما تأتيه إرادة القوّة كائنًا أو نفسًا هي علة هذه الاعمال. وهذه النّفس هي جوهر حر يظهر كيفما يشاء، ويعمل كما يشاء . وهذا الذي تمثلوه «حرًّا مختارًا» أصبح العبد يساويه بالسّيّد بل يجعله متفوّقًا عليه. وهكذا أصبحت قيمة الفرد لا تتوقّف على ما يتكوّن فيه

من مجموعة قوّاته. وبذا زال عندهم تفضيل القوي على الضّعيف بفضل منطقهم لأنّ القوي يعمل بحسب قواه وهو خاطئ، وعمله بحسب قواه عمل سيّء والضّعيف يعمل بحسب ضعفه وهو ذو حق، لأنّ عمله بضعف عمل حسن. فالضعيف إذًا هو خير من القوي ويصف نيتشه وصفًا مؤثرًا تلك العوامل التي لجأ إليها العبيد الذين تغلي صدورهم غيظًا وموجدة، ليحطوا من قدر الأسياد، وليحولوا أنفسهم إلى شهداء وقدّيسين. هذا هو المثل الأعلى للعبد فهو يحيا بتلك الدّعوات المعزية التي ابتدعها ولكنّ اثقال ضعفه الرّاسية على ظهره ينوء بحملها فيتألم ويشكو ويتململ، فيجيء الكاهن لا ليبرئه من دائه، ولا ليقطع أسبابه كما يصنع الطبيب. يجيء لينسي الصّابر ما يحسّه من ألم وشقاء، وليبث فيه «مواد مخدرة» ترقد الألم ولا تمحوه؛ يغفو مريضه ويعطيه مادّة تضعف فيه القوّة الحيويّة والعقلية؛ يلقي الزّهد والتقشّف والبلاهة في نفسه وجسده خدرًا إلى حين، فيذهل عن ألمه بل يوشك أن ينفك عن كلّ احساس فيه، فيغدو هذا الرّجل المنحط «قديسًا».

وقد يحيط الكاهن بالرّجل فيجعل منه آلة تستغرق كل انتباهه وتجعل منه شيئًا يتحرّك بذاته، ويصرفه التأمل في نفسه والتفكير فيها، ويلهيه بالانكباب على بهجة حقيرة يسهل عليه نيلها محبّة القريب والمحبّة والمساعدة المتبادلة، ثمّ يعمل الكاهن على أن يصرف قطعانه المريضة عن آلامها الذاتيّة. وازاء هذه العوامل التي اختلقها أخرى ابتدعها لمصلحته الخاصّة، عوامل خطرة مؤثرة، تنطوي على سموم تنسي المتألم آلامه وتفني فيه قوته الحيويّة وهذا السّم هو الإيمان «بالخطيئة» أمّا أصل الخطيئة فسببه

دافعـان ولـدا اختيارًا في قلب الإنسـانية، وهما الضّمير الفاسـد، والايمان بدين مكتوب على الإنسـان لله. والضمير الفاسـد عند نيتشـه تشويش في النفس عميق يسيطر على الإنسان يوم كان وحشًا معتزلاً ثمّ انقلب عضوًا رئيسًا في قطيع الأحياء، والحكومة هل هي إلا - كما يحتمل الذّهن - ظلم مرعب فرضه الاقوياء على الضّعفاء؟

فجـأة وجد المغلوبون على أمرهم أنّ اسـباب الوجـود عندهم مقلوبة رأسًـا عـلى عقب. وألفـوا أنّهم أصبحـوا لا يسـتطيعون أن يتبعـوا بحرية واختيـار تلـك الغريـزة الطبيعيـة التـي كانـت تسـوقهم. فظلـوا يبذلون جهودهـم بينهم وبين أنفسـهم ليقودوا أنفسـهم بفطنـة، ويضغطون على ارادتهم خشـية أن تجازف بالإساءة إلى الأسـياد، ويعملون بتعقل وتأمل. ولكـن هـذه الغرائز هي جزء من قوّة لا بدّ لهـا أن تبدو مظاهرها وآثارها. فـإذا كتب على القـوّة أن يضغط عليها حينًا حتّى لا تخرج عن نفسـها بأيّ دافـع مـا فهي ولا بـدّ مسـتحيلة إلى قوّة خفيّـة تعمل عملهـا في الباطن. وبمثـل هـذا التبدّل وعلى مثـل هذا التحـول ولد «الضمير الفاسـد» فهو وليد هذا الضغط الباطني الذي تصير عليه الغريزة الطبيعيّة في الإنسـان، وهـو كالوحش السّـجين الذي عضته الوحشـة ونازعه جنينـه إلى العرين والحريّة والصّحراء، ينهش جسـمه بين قضبان كذلك الإنسـان الابتدائي الأهلي السّـجين يتألم بنفسـه. وغريزة الحياة الكامنة فيـه المقيّدة بمظاهرها الخارجيّة أمست تبدو بحالة هيجان باطني وفكرة الدّين المكتوب الله على الإنسان هي فكرة قديمة متردّدة في الشّرائع القديمة. ففي العصور الأولى كانـت كل قبيلـة تؤمن بأنهـا مدينـة بخيراتها الحاضرة للذّريّات السـابقة.

وإن الأجـداد الذين قضوا يصيرون بعد المـوت أرواحًا قويّة تتابع تأثيرها في الاحياء وتواصل احسانها إليهم. ولكن كلّ إحسان لا بدّ أن يبذل ثمنه أن يبـذل ثمنه. وهكذا تولّـد في عقول النّاس أنّهم مدينـون بشيء لآبائهم وأجدادهـم. وهـم مضطـرّون إلى تقديـم الضّحايا لهـم جـزاءً وفاقًا على دفعهم للأذى والضّر عنهم. هنا نشـأت عبادة الأجداد في فجر كلّ مدنية ثـمّ تطوّرت هذه العبـادة قليلاً قليلاً. فالاحترام الذي كان يكنّه الإنسـان لأجـداده جميعًـا ما فتـئ ينقض حتّى ارتكـز في الجد الأصلي للسّـلالة، ثمّ نـزل هذا الجـد بدوره منزلـة الاله. وكلّـما كان الاله قويًّا مخيفًا كان شـعبه الذي يجلّه ويعبده أكثر فلاحًا وتقدّمًا، وفي الظّروف التي تنمو فيها عظمة الاله ينمو أيضًا الشّـعور بذلك الدّين المفروض في سـبيل احترامه وتزداد خشـية الإنسـان من قصوره في العمل لربّه. وبوساطة هذا المنطق ألفينا أنّ عاطفة خضوع الإنسـان لله بلغت الدّرجة القصوى يوم ظفر اله المسيحيّة بالأوثان له الارباب وعسـكر في مناطق بارزة من أوروبا. فآمن الإنسان، حتّى أصبح أجل من أن يوفى مدين عاجز لا يملك شـيئًا والدّائن هو الله. فهو والحالة هذه هدف للقصاص الفظيع. والإنسـان في شـدّته هذه تحرّى عن وسـائل كثيرة ليطرح عن ظهره هذا الدّين الثقيل فلام الإنسان الأوّل الـذي استحقّ لعنة الاله فابتـدع «الخطيئة الأصليّة» وجـرم طبيعة وأنكر الغرائز الكامنة فيه ونظر إليها كجرائيم شر وشـقاء، ولعن الوجود نفسـه وجعل رجاءه كلّه في العدم وفي حياته الثانية.

في النّهاية أعطى المسألة التي ناء بها ظهره طويلاً هذا الحل الغريب، أنّ الدّين المفروض على الإنسـان من قبل الله هو دين لن يقدر على أدائه

الإنسـان والاله وحده يفي عن الاله. فوجد الاله أن يضحّي بنفسـه في سـبيل حبـه للإنسـان واسـتنقاذه من دين مكتـوب عليه فتمثّل إنسـانًا وقرّب نفسـه قربانًا. وبهذا الفعل الذي أدّاه اشترى نفوس الذين يراهم جديرين برحمته ورأفته. الرّجل ذو الضّمير الفاسد يحسّ في نفسه حاجة مريضـة للتألم، وهو لا يشـعر بأنّ هـذه الحاجة تبعثهـا علّـة حقيقيّة هي وليدة هذا الضّغط القاسي على ارادة قوّته، وإنّمـا يدرك فقط أنّه متعاقد مـع الالوهيّـة عـلى دين لا يمكـن اداؤه. ومـن الحق أن يبدو لـه أن هذا الدّيـن شـديد تهـون في سـبيله الآلام، فهو يحتمـل الشّـقاء ليهدئ غيظ دائنـه العنيـف، وليكفّـر عن خطيئته. وهـا هـو ذا الآن يلتمس العذاب يتذوّقـه ألوانًـا ليفي بدين يزعـم أنّ لا نهاية له. يحمـل الألم ولا غاية له إلا الألم ليطفئ في نفسه رغبة التّكفير عن ذنبه. وهيهات أن تشبع الرّغبة أو تطفـأ! فكرة الخطيئة بعثـت مرّة ثانية، وأصبحت الآلـة التي يتوعّد بهـا الكاهن، وبها يسـيطر على الارواح، وبها انقادت له جموع الاشـقياء ووضـع يده على النّعاج المتألّمـة التي أبصرها في الطّريـق. مضى قدمًا إلى أولئـك المنحطّـين العاملين بشـقاء يجهلـون علّته يتحرّون عـن العلة أو الواحد المسـؤول عن انحطاطهـم الغارقين فيه. فيوحي إلى هؤلاء بأنّهم هم أنفسهم كانوا سبب شقائهم الحقيقي. وينبغي لهم أن ينظروا إلى هذه كتضحيـة صغـيرة عن خطيئاتهم التـي اجترحوهـا، فليقبلوها الآلام - بطـرب - كامتحان أراده الله، فآمنوا به وقبلوا بهذا الحل وتلقحوا برضا بهـذه الفكرة المسـمّمة عـن الإيمان بالخطيئـة. وفي أوروبـا اليوم مذهب يضمّ هؤلاء الخاطئين التوّابين الذين يمشون بأجسام مريضة وأعصاب

ساكنة ونفوس ذاهلة، فرائس لليأس والهذيان؛ جوعهم دائم للعذاب، تستولي عليهم فكرة الخطيئة والهلاك الأبدي.

في النّهاية يجد نيتشه أنّ التّعاليم المسيحيّة كديانة وكمثل أعلى، لا تقود إلا إلى العدمية «Nihilisme» يجد أنّها خلقت عالمًا مفعمًا بالأوهام المجرّدة، وتخيّلت عللا خياليّة، وأعمالاً خالية، وروابط بين الأكوان خياليّة. أسست علمًا طبيعيًّا وهميًّا مؤسسًا على انكار الأسباب الطّبيعيّة والعلاقات الطّبيعية بين الأشياء، وأسّست علم نفس خياليًّا يرتكز على تفسير خاطئ للحوادث الطبيعيّة وعلى فلسفة خياليّة، وبينما كان الرّجل المسيحي دائبًا في بناء وجود كان يهدم الوجود الحقيقي، يقاوم الطّبيعة «أصل كل بلاء» في سبيل الاله «أصل كل هناء» فولدت الأوهام المسيحيّة من بغض الحقيقة، فهي نتيجة إنسانيّة منحطّة، تربو فيها كمّيّة الشّقاء على إنسانيّة تعبة سائمة، ومتألمة، تميل إلى التّشاؤم وعدم الحياة، ولا تجد راحتها إلا في احضان العدم.

إنّ عمل التاريخ الاوروبي هو ظفر شريعة العبيد على شريعة الأسياد، لأنّه قبل تلك الشّريعة وعمل على اعتناقها وكفّر بهذه الشريعة. وإنّها لمعركة لا تزال مشبوبة محتدمة عشرين قرنًا بين روما وارثة الحضارة اليونانيّة ومثلها الأعلى الارستقراطي الذي هو أقوى مثل وأسمى مثل تحت الشّمس، واليهوديّة موطن البغض ومنزل الرّوح «الكهنوتي». انتصرت اليهوديّة والنهضة الحديثة التي شبّت في أوروبا قامت في وجهها عثرات وعقبات، كثورة «لوثر» والبروتستانت، وكثورة الباستيل في فرنسا،

وانهزام نابليون، هذه نائبات تتالت فحالت بين بلوغ النّهضة غايتها فآلت إلى انتصار شريعة العبيد. فأوروبا الآن غارقة في انحطاط عميق، يقضي على ما تبقّى في عروقها من حياة، حتّى ليخشى أن يتقهقر النّوع الإنساني إلى الوراء فلا يورث بعد اليوم إلا صورًا من الخزي والعار. هذه هي شريعة العبيد التي تسيطر على العالم تحت اسم «ديانة الألم الإنساني». فلنفصل الآن هذه الديانة وما تنطوي عليه.

إنّ تحليلنا لعاطفة الشفقة التي يتبجح بها اليوم معلمو الجيل الحاضر يثبت لنا أنّ هذه العاطفة ليست من العدل والجمال على المثال الذي يرون. إنّ عاطفة الشفقة – في الحقيقة – يتولّد منها سرور أناني، إذ نحن نصنع مع الآخرين الخير كما نصنع الشّر غايتنا من ذلك أن نظهر شعورنا بقوّتنا، وتخضعهم لسلطتنا أمّا الرّجل القوي الشّريف فهو يفتّش عن كفء له ليبادله النّضال ويحني هامته إزاء قوّته، وتراه يحتقر الفريسة الذليلة السّهل انقيادها، وتراه ينحرف عن الخصوم الذين لا يجد فيهم اكفاءه وأمثاله. أمّا الضّعيف فهو يميل إلى الظّفر السّهل والفريسة الخانعة، وهل كان ضعيف أو شقي يومًا مهيبًا؟ وإنّ الإنسان بطبيعته وارادته يجنح إلى احسان لا إلى شقاء.

إنّ الشّفقة فضيلة الأنفس المتوسّطة، تتدرّب عليها دون وازع ولا مانع، حتّى إذا نزلت هذه الشّفقة ساحة النبيل أصبحت علامة الانحطاط، وذهاب الكرامة، وخساسة الأصل. إنّ النبيل يكتم آلامه وهمومه ولا يبوح بها ويصرف عن نفسه الارادة الحسنة كما يصرف

الارادة السّيئة، والإنسان المتألّم القبيح قد يكون على حق في كرهه للشّهود الذين يبوحون بسر فاقته وقبحه وتعاسته. هؤلاء الشّهود لا يستحون أن ينظروا إلى ما كان ينبغي له أن يظلّ خفيًّا عن العيون، فيحملون هذا الشّقي منّة شفقة ما طلبها وما تمنّاها. إنّ الشّفقة ليست بعاطفة مفيدة فحسب، بل هي عاطفة منحطّة أيضًا، لنتصوّر أنّ ديانة الألم قد انتشرت بين الناس فما النتيجة؟ إنّ كمّيّة الألم تزيد بدلاً من أن تنقص، ويصبح هذا هو الإنسان مجبرًا على حمل آلامه الخاصّة وجزء من آلام وبهذا تضعف الشّفقة من حيويّة الحياة الغير، حملاً على حمل، وتجعل من الألم داء ساريًا. ناهيك أنّ ديانة الشّفقة تعتاد المذهب السّائد حكمه الأحياء، وهو بقاء الأصلح في والأنسب الطّبيعي الذي يقضي بفناء الكائنات التي لا يصلح تركيبها للحياة، وقد أتاها حظ بخروجها ظافرة من معركة الحياة، وكلّ ديانة ترمي إلى الشّفقة ديانة تعمل على وقاية المناصر المنحطّة، وعملها هي ما يسوق إليها الفوز في كلّ جيل، لأنّ الضّعفاء والمرضى هم في الحقيقة الفريق الغالب، بينما الإنسان الخالص الصّافي من كلّ شائبة هو نادرة من نوادر الوجود، وقد ثبت في كلّ الأنواع الحيّة العالية أنّ الأغلبية فيها هي كائنات منحطّة التّركيب، وسيّئة الخلق، مستسلمة للألم والإنسان لا استثناء له هذا الحكم، والإنسان بالنّظر إلى الحيوانات راقية قابلة للتّطوّر، وهو لما يبلغ آخر مرحلة من مراحل التّطوّر في الكمال، وهو لما يزل عرضة للحوادث التي تؤثر فيه وتبدل منه. كما أنّ معدل الانحطاط في النّوع الإنساني هو أبرز وأكثر منه في سائر الانواع وديانة الشّفقة تغدو عاملاً كبيرًا في الابقاء على فريق كبير من الأحياء لا فائدة

منه، لأنّ انتخاب النّوع لا يرى غاية له إلا الفناء. هي تحفظ مظاهر الفاقة والبؤس فتجعل الوجود أكثر قبحًا، والحياة أكثر ميلاً إلى العدم.

إنّ هـذه الدّيانة هي جزء من العدميّة ومهدّدة للوجود وللنّماذج العليا من إنسان الوجود. فإنّ مرأى البؤس والألم والانحطاط من والقبح يدعو الرّائي إلى رجاء العدم، إمّا بعامل اليأس من هذا المرأى أو بعامل الشفقة، حتّى ليغدو مذهب الشّـفقة مرضًا شديدًا يقضي على طبيعة كريمة، ويقتل منها قوّة نضالها ودفاعها. هذا المرض الدّائب على تذليل الذّريّة الاوروبيّة، وتقييد اصطفاء الأنواع السّـامية، والحيلولة بين الإنسـان والسّوبرمان أنّ انتشار مذهب الشّفقة – في هذا الجيل – دليل على أنّ الإنسان أصبح يزداد خوفـه من الألم. أصبح متراخيًا، مخنثًا يخشـى كل مـا يعكـر عليه طمأنينته ووجوده، لا يحمل الفرار من الألم وحده، بل لا يسـتطيع أن يتصوّر فكرة الألم عند الآخرين، يقدر أن يؤلم الغير عندما يطلب العدل منه ذلك باسم العدل. الرّحيم يبسـط شـفقته حتّى عـلى المجرمين والمسـيئين وقريبًا يأتي ذلك اليـوم الذي يتراخى فيه المجتمع الإنسـاني ويقعد عن معاقبة المجرم الـذي يضرّه. لماذا يعاقب المجرم؟ إنّ المعـاقبة يرى فيها ضربًا من ضروب الجور، فكرة القصاص وضرورة القصاص تسوؤه. أليس في اقصاء المجرم وغـلّ يديه عن عمل السّـوء ما يغني؟ فلماذا القصـاص إذًا؟ إنّ القصاص يضنـي أمّـا المثل الأعلى الذي يطلبه «وحش القطيـع» فهو جزء ضئيل من السّعادة المحقّقة لكلّ إنسان، يرافقه شيء من الألم. إنّ الشّقاء عندهم شيء يجب محقه.

إنّ نيتشـه – في هذا الفصل وهو خير فصوله يعتقد أنّ الجبن والخوف مـن الألم هما مـن الصّغار والحقار بمكان. في الحق معــلم الإنسـانيّة وهو الذي يحقق احسـن نماذج شريفة. (أنتم تريدون سحق الالم ونحن نريد ان تكون الحياة اكثر قسـوة واشـد رداءة. ان الكائن السـامي الذي تفهمونه، نـرى فيـه «غاية» ولا نرى فيـه «نهاية». نرى فيه مرحلة يبدو الإنسـان من ورائها شـيئًا حقـيرًا مزريًا حتّى يدرك آخر عهده). أجل، في مدرسـة الألم الكبير، في مدرسـة هـذا المعلم القاسي يتمّ الإنسـان مراحل تطوّره. أليس التّضييق على هذه النّفس السّاقطة تحت أعباء الشّقاء يزيدها قوّة وصلابة؟ أليسـت هذه الرّجفة التي تنتابها بإزاء الحادثات الكبرى تزيد قوّة احتمالهـا وصبرهـا وثباتهـا وتحويل المصائـب إلى دروس مفيدة؟ كل هـذا ألم يؤول بالنّفس – في مدرسة الألم إلى خروجها مهذّبة نقيّة؟ إنّ في الإنسان «خليقة وخالقًا»، في الإنسـان شيء هو مـادة وطين ووحل، لا شـعور له، فضاء؛ وفي شيء خالـق مبـدع، ونقاش وبهجـة فنّان وصلابة ومطرقـة، أأدركت هذه المقارنة؟ ألا تزال شفقتكم تذهب إلى ما في الإنسان مادة ينبغي سحقه وحرقـه في النّار حتّـى يتطهّر منها وإلى كل يجب عليـه أن يتألم بالضّرورة؟ وشـفقتنا هـل تـدرون موقعها؟ إنّها شـفقة علينا حين نقاتل شـفقتكم كما نقاتل كلّ ظاهرة من ظواهر الضّعف والجبن، وهكذا شفقة ضدّ شفقة.

يـرى المذهب الديموقراطي علامة من علامات الانحطاط، لأنّه مهما تباعـدت أصوله وتبدلت مناهجه متّفق مع المذهب الدّيني. ففي الشّريعة المسيحيّة وفي ديانة الألم الإنساني يتمثل ما يتمثّل في مقت الضّعيف للقوي، وجنوح قوي إلى حياة لا ألم فيها. إنّ المسيحيّة تجعل الناس متساوين أكفاء

أمـام الله، وتعدهـم بسـعادة كاملة في الحيـاة الثّانية، كذلـك الديموقراطيّة جعلـت النّاس متسـاوين أكفاء أمام الشّريعة والحـق، وعملت على تحقيق سـعادتهم في هـذه الـدّار، ورجـت أن تخلـق مجتمعًـا يـزول فيـه التفاوت ويكـون أهله في الحقّ سـواء؛ لا يتمتّع أحدهم بـها لا يتمتّع به آخر. حيث لا أمر ولا طاعة، ولا اسـتبداد ولا اسـتئثار، ولا سـيادة ولا عبوديّة، ولا غنـى ولا فقـر. هذا هو المثل الذي تنهض إليـه الدّيموقراطيّة، ويدعو إليه أصحابهـا عـلى اختـلاف مللهم ونحلهـم، كلهم يعملون عـلى رفض كلّ سـلطة ذاتيّـة، ليملكوا لأنفسـهم كلّ امتياز. وكلّهم يؤمنـون بأنّ كل فرد يقدر بل ينبغي له أن يجد سـعادته الخاصّة في سعادة المجتمع بأسره، وهذه السّعادة الاجتماعيّة يمكن تحقيقها بإشفاق كلّ فرد على المجتمع، وبالمحبّة العامّة السّـائدة. هذه الافكار غرست في عقول أبناء الحاضر غرسًا متينًـا، حتّـى أصبح لا يقوم في أوروبا رجال تقوى فيهم روح السّـلطة والزّعامة ولـن يوجد في عصرنا هذا من يمثل روح نابليون الذي كان ينضوي تحت لوائه الألوف، يمشي فيمشـون لا يسألونه أين يمشي، وهؤلاء من بأيديهم الحكومـة اليـوم لا يملكون من الحكم إلا قليـلاً، لأنّ شريعة العبيد رافعة رأسـها في كلّ مكان، فهم يستمدّون الحكم هذه الشّريعة، لا يحيدون عنها ولا يجـدون عنهـا مصرفا من فهـم خادمو هذا البلد، هـم الجلادون فيه، وهم منفذو القانون.

وقـد بحث نيتشـه علاقة الرّجل والمـرأة، وهو يرى أنّ المـرأة ليس لها حـق المسـاواة مـع الرّجل، دلّ عـلى ذلك الحـب الذي تنغمـس في حمأته الكائنـات. فوظيفـة الحبّ عنـد الرّجـل غيرها عند المـرأة، ومكانة الحبّ

عند المرأة غيرها عند الرجل. فالحبّ عند الرّجل إن هو إلا حادث بسيط أو غريزة ضعيفة أمّا الغريزة العنيفة فيه فهي غريزة القوة، هذه الغريزة التي تدفعه إلى بسط سلطانه إلى أقصى ما يقدر عليه. إنّ مناضلة القوى الطّبيعيّة والقوى البشريّة في سبيل تحقيق شخصيّته هي ما يتطلّب منه عصره وجهوده. فإذا أسلم نفسه إلى الحب، ووهب حياته وأفكاره للمرأة التي يهواها يصبح عبدًا مقهورًا وجبانًا ذليلاً، تسلخ عنه الرّجولة الحقّة والحب الحق. يقول زراداشت: «كلّ ما في حياة المرأة هو لغز؛ وكلّ ما في المرأة له حلّ وأحد الحلول هو الولادة». فالحب إذًا هو أبرز ما في حياة المرأة، وإنّما مجدها وشرفها يدفعانها إلى أن تمثل دور «الأولى» في الحب، وأن تهب كيانها كلّه جسدًا وروحًا للرّجل الذي تصطفيه، وأن تفتش عن سعادتها في الانسلاخ عن ارادتها الخاصّة.

يقول زراداشت: «إنّ سعادة الرّجل أنا أريد! وسعادة المرأة هو يريد!» إنّ المرأة التي تحب ينبغي لها أن تسلّم نفسها إلى الرّجل الذي يجب عليه أن يتقبّل هذه المنحة. هذه هي شريعة الحب التي تجعل بين الرّجل والمرأة حاجزًا حائلاً وفرقًا بعيدًا. خلقت المرأة للحبّ والطاعة، وويل لها إذا سئم الرّجل ظفره عليها وألفى أنّ هذه المنحة حقيرة بالنسبة إليه، وركض يسعى وراء غرام جديد! ينبغي للرّجل أن يحكم وأن يحرس. يجب عليه أن يكون قادرًا على أن يحيا حياتين، ليحقق سعادته لنفسه، وسعادة من وقفت عليه رجاءها. ولكن تعسًا له إذا ظلّ تحت اثقال هذا العمل، وإذا أدرك حبّه وعجز عن اضرام نار هذا الحب، حتّى لا ترى فيه إلا موضع ازدراء واحتقار. ولكنّ جيلنا هذا لن يقبل هذه الآراء،

فالجيـل الـذي قـدّس العبد يجرّب أن يؤلّـه المرأة. لا يـرى في المرأة عنصرًا سـاميًـا يسـتطيع أن يسـاعد الإنسـانيّة في تقدمهـا. الرّجل وحـده يتعلّق عليه ذلك لأنّه السّـيّد، وهو السّـيّد ذو القوّة الرّاجحـة والعقل الأرجح والقلب الأمثل والارادة الأشد نفـاذًا، والمرأة قد تكون نبيهة ذكيّة تضارع الرّجل نباهة وذكاء، تتفهّم المسائل وتفصل أمهات الأمور الدّقيقة وتحاكم وتجـادل ولكنّ طبيعتها أقل عمقًا وأقل غنى مـن طبيعة الرّجل. إنّها تبقى دائمًا طافية على سـطوح الأشياء. إنّهـا شيء لا يذكر... إنّها مسكينة مزهوّة الأشياء بنفسها.

يقول زراداشـت: «يعلـم الرّجل للحرب والمرأة لتسـلية المحارب... وما دون ذلك فهو جنون». ليست المرأة صنمًا إنّما هي لعبة سريعة العطب لكنّهـا ثمينـة وقد تكون خطـرة ورقّة في طبع الرّجل. تغـدو خطرة مرعبة حـين يضرمها الهـوى والحب والبغض، لأنّ طبيعتهـا لا تزال أكثر احتواء مـن طبيعـة الرّجل عـلى وحشـيّة الغرائـز الأولى، ففيها رقّة ملمـس الهرّة وفظاعـة مخالـب النّمـرة، فيها طبيعة نابيـة ثائرة، وأهـواء جامحة لا تعرف منطقًا، ورغائب قلقة. وكلّ هذا يجعل المرأة فقيرة، إلى سيّد يكبح جماحهـا ويقودها ويميت فيها جنونها، حتّى إذا استشـعرت الرجل أمسـت رقيقة ناعمـة بفضل طبيعتهـا وزينتهـا وتبرّجهـا وفضيلتها اللابسـة ألف ثوب فيعرف إذ ذاك قلب سـيّدها الاشـفاق عليها، الاشـفاق الكثير لأنّها أكثر عرضـة للألم. إنّها مفتقرة إلى حبه، وقد قضي عليها بأن تكون أقل الخلائق وهمًا.

إنّ نيتشـه ينقـم على المـرأة التـي تريد أن تتحـرّر من قيودهـا، وتهجر احترامهـا للرّجـل وتزعـم بأنّها قرينة مسـاوية، تريـد أن تدخـل معه فيما تطلب الحياة من نضال. إن نيتشه يبغض النّساء اللواتي يمشين في صفوف الرّجـال، لأنّهـنّ يفقـدن تأثيرهنّ ونفوذهـنّ، واعتبار المجتمـع لهن، وإنما همهـنّ أن يظهرن للرّجال بطبيعة مباينة لطبيعتهـم وجبلة مخالفة لجبلتهم، فهمهـا ويعسر حكمها. وها هي المـرأة المزاحمة للرّجل أضاعت ما خصّتها الطبيعـة به وأهملت مهنتها التي تقضي عليهـا بوضع الأطفال. وفي النّهاية يرى نيتشه أن أوروبا تتشوّه وتزداد تشققًا؛ قد استحالت إلى معتزل تسكنه طائفـة من النّـاس توقوق حيث لا أحـزان كبيرة ولا أفـراح كبيرة، طائفة من رجال ونسـوة تسـاووا في العجز والضّعف والانحطاط، يقضون على الأرض حياة متّشحة بالسّواد لا أمل منها ولا غاية لها.

يرى نيتشـه شريعة العبيد ومثل الزّهد وسـلطة الكاهـن تقوم اركانها على جملة اكاذيب فارغة، وهو لا ينظر إلى الشّريعة المسيحيّة نظرة الرّافض لهـا، وإنّـما يجد فيهـا خطرًا كبـيرًا وتدمـيرًا. إنّ قطيـع المنحطّـين وقائدهم كاهنهـم الزّاهد تراهـم وقد قضي عليهم بـأن يغمضوا أعينهـم عن بيـان أصـول الأشـياء، لكـي يضعـوا موضـع الامتحـان والحقيقـة التّجريبيّة شريعتهـم وقيمهم الوهميـة الضّالة التي عالجوا بهـا حـلّ أسرار الوجود. لو أدرك المريض حقيقة أمره، وعرف مكان عافيته، وموطن شفائه، وعلم عـلاج الكاهن لا يزيح من ألمه الحقيقي شـيئًا، إنّما هـو علاج ظاهر يعمل عـلى تشـديد الألم بـدلاً من أن يعمل على تخفيفه وشـفاء صاحبـه؛ لو علم ذلك كله لرأيت العمارة المسيحيّة قد انهارت دعائمها واندكّت صروحها.

إنّ المنحط الضّعيف يتحرّى عن مخفف حقيقي لآلامه عند الطّبيب أو عند المـوت. وقد أحسّ الكاهن هـذا الخطر فأخذ يحدث قرنـاءه دائمًا الإيمان، وهـو الاقتنـاع المبني على غـير العقل، عـن الإيمان الذي لا يحفـل بحقيقة الأشـياء، وهل الإيمان بحقيقته إلا أن تفرض وهما تشعر بضرورة وجوده في الحياة وتفرض وجوده بأيّ ثمن كان؟

في كلّ عـصر يـرى الكاهن في الحكمة الدّنيويّـة والعلم الواقعي الذي يـدرس الوجـود للعلـم، غير حافـل بقواعـد الدّين، يـرى الكاهـن فيها خصمـين عنيفـين، وهـو يحلّـل كلّ وسـيلة تصرف الإنسـان عـن التأمّل في الأشـياء بعين نفسـه. جـلاء الحقيقة عاريـة مجرّدة من غير تشـويه يغفر للمسـيحيّة ما تثبت في الإنسانيّة من آلام، وما عسى يضرّ الألم الإنسان إذا كان الألم يصفيـه؟ وفي الحقيقة نرى الإيمان الدّينـي قد خلق أرواحًا كثيرة أفادت البشر؛ ولم يكلف نيتشـه نفسـه بيان الآلاء التي قامت بفضل ثورة العبيد فأغنت النّوع الإنسـاني وظلت مـن الانقلابات المعتبرة في التّاريخ. ونيتشـه يعجـب بالمنطـق العظيـم في المنطق الدّينـي الـكاذب، وبالمذهب الذي ابتدعه وظلّ يغذّي النّاس طيلة عشرين قرنًا بالأوهام الخياليّة، وقد يعجـب بالكاهـن على الرّغم من أنّه ينطوي عـلى ارادة شريرة، لأنّ ارادته تسـتمدّ شعورها من نفسـها، لا تحوك الاوهام حول الهدف الذي تقصده ولا حول الوسائل التي تصطنعها.

أمّـا مـا يسـتفزّ غضـب نيتشـه من العـالم المسـيحي فهو ذلـك المحيط القـدسي الذي يحيط به، وذلك المزيج من المكر والغباوة والطّهارة الكاذبة

التي يتظاهر بها رجال الإيمان. فاستفاق في نيتشه شعوره الوحشي وحبّه للطهارتين الماديّة والرّوحيّة، وجرأته في الذّهاب وراء أقصى ما أشرف عليه عقله، فثار وتمرّد على هذا التّدليس كلّه ثمّ انصرف عن هذه الجماعة وفي قلبه سأم من رجالها الذين غدا الوهم عندهم جزءًا من الأجزاء التي لا يتمّ بدونها الوجود؛ وهم لا يعرفون أنفسهم حين يخدعون ويخادعون وحين يكونون صادقين، يعيشون أسرى اوهامهم حين يريدون أو لا يريدون. وأعلن أنّ المسيحيّة هي المسؤولة عن تسميمها للبيئة العقليّة والأدبيّة في أوروبا. على أنّ جهود الكنيسة كلها في مناضلة العلم ذهبت عبثًا، ومقاومتها للعقل البشري ذهبت أدراج الرّياح فإنّ في اوروبا كثيرين من علماء الطّبيعة، على اختلاف مناهجهم ومدارسهم يعيشون في غير اكناف الدّين والإيمان؛ هؤلاء الكهان.

لكن سائلاً يسأل: «ما بال عقول هؤلاء لم تضع سدًّا يمنع تأثير الوهم المسيحي؟ وكيف لم يفلح أصدقاء الطّبيعة والحياة والعافية في تحطيم القيم المسيحيّة؟»

كان جواب نيتشه على هذا السّؤال جوابًا أدبيًا. يقول: «إنّ هؤلاء العلماء لا يؤمنون بعلمهم، ومعنى ذلك أنهم لا ينصرفون إلى تبديل المثل الأعلى الدّيني بمثل أعلى من عندهم؛ أو أنهم يؤمنون بعلمهم ويأتون بحلّ جديد للحياة يستمدّون مادته من المثل الأعلى المشيد على الزّهد، أو أنّ رجال العلم هم رجال متوسطو الادراك، عاجزون عن إبداع شريعة جديدة، أو أنهم قوم زاهدون محتالون عالمون؛ لا يختلف جوهر مثلهم

الأعلى عن مثل الكهّان. يشبّه نيتشه هذا العالم «المتوسط» بامرأة عجوز لا تلد ولا تنجب وهو قليل القناعة بنصيبه.

الآن فلننظر في تعريف رجل العلم! إنّ رجل العلم يتّصل نسبه بذريّة غير شريفة. تنطوي نفسه على خلال ذريّة غير شريفة، ذريّة لا تأمر ولا تملك سلطة، ولا تغني شيئًا، إنه عامل دائب يدرك بشعوره حاجات قرنائه، وارث أمراض ذريّة غير نبلة، ملك عليه الزّهو ومشى لا يتحرّى إلا الأشياء السّفليّة. أمّا العظمة فهي بعيدة المنال عنه، وأنّ ممّا يجعل العالم جليل الخطر شعوره الباطن بأنّه من ذرّيّة متوسّطة، فهو والحالة هذه يدأب عاملاً على إبادة الرّجل «الشاذ» ولا ربي أنّ العالم يحيا بعيدًا عن كل إيمان؛ ألا ترى فطرته في كثير وملامسة امثاله، لأنّه يعتقد كلّ الاعتقاد بأنّ رجل الإيمان هو نموذج سفلي في البشريّة، وأنّ رجل العلم هو أسمى منه، على أنّ هنالك هوّة سحيقة تفصل بين رجل الدّين، رجل الارادة الكبيرة المريضة، المقاتل الظافر بفضل هذه الارادة، والخالق قيمًا يعتقد بصحّتها، وبين هذا الرّجل العالم الجريء، هذا القصير المعجب بنفسه الذي فقد إيمانه بنفسه وعلمه. يعمل كما تعمل الآلهة ليزداد غواية وضلالاً، ولينعتق من التفكير، وليزيح من سبيله هذه المسائل المغلقة! قد يكون عمله حسنًا لو كان يعمل مستوحيًا نفسه، لكنّه يعمل ليكون مأمورًا عاجزًا عن إبداع قيمة جديدة، عاجزًا عن أن يتذرّع بإرادة.

لنحكم الآن أنّ العالم «غير الذاتي» الذي نضجت فيه الحاسّة العلميّة قد ساد أمره فماذا ينتج منه؟ لا شيء إلا مرآة وآلة لا ارادة لها، إنّه يشبه

المرآة التي تعكس الأشياء، ترتقب حتّى تظهر عليها فتعكس مرآها، وإنّما غناه في أن يكون معبّرًا تمرّ به الأشياء لا يحسّ ولا يلمس آلامه الشّخصيّة. يعمل ما يستطيع، ويعطي ما يستطيع، ولكن ما يعطيه حقير لا قيمة له هو لا يأمر، ولا يخرب شيئًا. يقول مع ليلينز: «أنا لا أحتقر شيئًا!»، إنّه آلة تتجلّى فيها العبوديّة والخضوع والطّاعة مفتقر إلى معلّم يهديه إلى الغاية المقصودة. وهو ليس بعلامة حركة جديدة، ولا بعلة أولى إنّه، وا أسفاه! ليس بمعلم إنّه وعاء فارغ يتّخذ لون السّائل المراق فيه، إنّه فاقد الشّخصيّة، ثمّ هاجم نيتشه الشّكوكيّين الذين يصل بهم علمهم إلى حيرة يتساوى فيها الصّعود والهبوط، والعلم، والجهل، وإنّما يتميّزون من رجال العلم بأنّ هؤلاء عالمون دائبون كالآلات؛ أمّا الشّكوكيون فهم عقول أضعفها تريضها الزّائد في العلوم، وهم ليسوا بشيعة واحدة، فمنهم المضطرب والمعتدل المزهو بنفسه، ومنهم النّفس التي تبذل الجهد في كشف أسرار الوجود وقد دوختها أسراره حتّى غدت تروح وتغدو كالخيال الدّقيق ليس له من قرار. ألا ترى إلى زرداشت نبي نيتشه، المبشر بالسّوبرمان قد سحب وراءه خيالاً من هذه الاخيلة الضّالة، رافقته في كلّ مراحله، قد طلقت كل إيمان كان فيه عزاء، وحطّمت كلّ الاوثان، وفقدت إيمانها بالأسماء الكبيرة والرّموز الفخمة حتّى أضاعت غايتها في النّهاية وضلّت في زوايا الوجود الموحش هائمة بدون حب ولا رجاء ولا وطن.

«رآها زرداشت فلم يتمالك نفسه الإشفاق عليها: «قال بكآبة: أنت ظلّي!

إنّ الخطر الذي تفرّ منه ليس بحقير أيّها المسافر!

إنّ أمامك نهارًا سيئًا، فاحترس من أن يكون مساؤك أسوأ!

إنّ السّجن لأمثالك الطّائشين قد يصبح نعمة لهم، أرأيت هؤلاء العاتين المفسدين، يتجرجرون في قيودهم؟ هؤلاء ينامون نومًا هادئًا لأنّهم مرتاحون بطمأنينتهم.

احترس في النّهاية أن تغدو سجين إيمان ضيق ووهم قاس مرعب. على أنّ كل ما هو ضيق قاس هو لك فيه أهواء وخديعة.

إنك أضعت الغاية، وكذلك أضعت سبيلك.

يا لك من نفس ضالة طائشة! يا لك من فراشة منهوكة القوى!»

لكنّ رجال العلم ليسوا جميعًا على هذا النحو الذي صوره نيتشه، فهنالك رجال يقين من رجال العلم، علم هؤلاء لا يقف ماذا ندري؟ هو علم وثاب يخلق ارادة ويبدع شريعة ومذهبًا. لكلّ فلسفة أجل موقوت، تظهر فيه حجتها على النّاس وكل فيلسوف يضم شتات فلسفته ويحبسها ضمن نظام منطقي كأنّها عمل عقلي محض، ألا إنّ هذا باطل، فإنّ الحياة الواعية في كلّ إنسان لها جذور تمتصّ من الحياة غير الواعية فيه؛ وإنّ حبه لمعرفة الحقيقة يعود إلى غريزة فيه قويّة عاد إلى المذهب الفلسفي العددي المجرّد من كلّ شخصيّة ومن كلّ هوى تجد شيئًا ينزل منزلة الإيمان فيه؛ وما نظريات الفيلسوف في الحقيقة إلا بنات مذكراته واعترافاته. إنّ هذا الفيلسوف ليس في الحقيقة - كما يخيّل إلينا مفكّرًا خالصًا، ولكنّه محامٍ خبيث يذب عن اعتقاداته الوهميّة ولا سيّما الأدبيّة منها. يجرب أن يجعل

مـن اعتقاداته حقائق ثابتة ودسـاتير نافذة، على أنّ هـذه الاعتقادات التي تنطوي عليها المذاهب الفلسـفيّة التي تريد أن توجه الحياة في سـبيلها، إنها هي اعتقادات مسـتمّدة مـن المثل الذي يبشر بالزّهد والمسـكنة. وهكذا لم يكـن الكاهن والفيلسـوف بخصمين - كـما يبدو ظاهر الأمـر- وإنّما هـما صاحبــان وإن كانـا لا يدريان. هذا هـو (كانت) أبو الفلسـفة الألمانيّة لا يرى فيه نيتشه إلا كاهنًا مسيحيًّا تطوّر في بعض حالاته.

خلاصة فلسفته إنّها تضع «شعبتين» من شعبها خارج القوّة العقليّة؛ في الأولى تلهـج بعالم حقيقي مباين لهذا العالم المبني على الظّواهر والحوادث، وفي الثّانيـة تؤمـن بالشّريعة الأدبيّـة الخلقيّة إنّها مقدرة تقديـرًا. وإذا جرّد المحقّق هاتين الشّـعبتين وجد أنّها وليدتا نظريّات الشّريعة المسـيحيّة ذاتها الإيـمان بعـالم حقيقي غير هـذا العالم؟ أليسـت هذه الفلسـفة تنطوي على الفكـرة التـي يبشّر بها علم اللاهـوت، فالإله العلّـة الأولى للوجود الذي تتلقفـه الحـواس، وحيـاة الإنسـان الحقيقيـة الحيـاة في الله، وهكـذا أخـذ النّظريّـون فكـرة القول بإلـه صالح، بإلـه للمتألمين، ودققوها وسـموا بها وبدلـوا لونها حتّـى أحالوها عنكبوتًا ضخمًا ينسـج الوجـود من خيوطه، فكان منه «المثل الأعلى» والعقل الخالص، والواحد المطلق، والشّيء القائم بذاته؛ على أنّ هذا الشّيء القائم بذاته، وهذا العالم الحقيقي إنّ هما إذا تجرّدا إلا العدم الخالص.

إنّ اله المسـيحيين - كما يراه نيتشـه - هو إله كلّ ما يتألّم، وكلّ ما يجنح إلى المـوت؛ وهو بـدلاً من أن ينشر كآلهـة الوثنيّة بما يفيض عـلى الحياة من بهجة ونعيم، ويبثّ الارادة القويّة التي تقول للحياة «نعم» ولكلّ ما تحمله

«نعـم» نـراه يحمـل النّاظر إلى كلّ منحطٍّ خسيس في فؤاد الإنسـان، يكره الحيـاة الحقيقيّـة ولا يحمل لهـا إلا مقتًا ويجعل رجاءه في حيـاة وهمية ثانية. إنّ عالم النظريين يماثل في حقيقته هذا العالم المسـيحيّ، إنّه كلمة فارغة من كلّ حقيقة إنّ الاله المسـيحي هو علامة «سـلب الحياة» واله الفلاسفة هو العدم الخالص. وتلك الارادة التي تمثل هذا الاله أنّ إلا الجنوح إلى الفناء وأنّ أبرز هؤلاء الفلاسفة الذين يعتقدون بأنّهم مارقون من كلّ دين وكلّ إيـمان هم في الحقيقة رجال إيمان لا يتزعزع. إنّ هؤلاء العلماء والفلاسـفة اللابسـين أثوابًا مختلفة إنّما لباسـهم لباس واحد يلفهـم ويضم بينهم، هو لبـاس الزّهـد. لنحلّل معتقدهـم إنّ إرادة أدراك الحقيقة – مهما كان ثمنها – تتهيّـأ في طريقين مختلفين تقول: «لا أريد أن أخدع!» أو تقول: «لا أريد أن أخـدع نفسي ولا أخدع أحدًا». أمّا القول الأوّل فهو بعيد عن الحقيقة، لأنّ الإنسان يقدر على أن يسمو إلى الحقيقة بفطنة منه أو خشية إذا كان يثق بنفع هذه الحقيقة السّامي إليهـا. إنّه إذا كانت هنالك حقيقـة بدأت تنجلي شـيئًا فشيئًا للعقول المسـتنيرة فهي أنّ الوهم ذو فائدة للوجود وضروري له كالحقيقة.

وفي اعتقاد نيتشـه أنّ الوهم والكذب هما مـن الجواهر اللازمة للحياة ليسـت بجملة اعتراضات، ولا فوز في المنطق، وأنّ مسألتنـا هذه: «ما هو الأجدى نفعًا لحفظ الحياة، وصيانة النّوع ووقاية الحيوان؟» وإنّا لنسـتطيع أن نقـول بـدون تـردد: «إنّ الأفـكار والأحـكام الأكثر بعدًا عـن الحقيقة الأشـياء التي لا منصرف عنها ولو أنّ البشرية استغنت عنها لما استطاعت الحيـاة، إذ كان الجحـود جحـودًا بالحيـاة نفسـها وإعدامًا لهـا. ولكن لو

فرضنا أنّ الكذب أكثر يمنًا والحقيقة أكثر شؤمًا، فإنّ رجل العلم لا يجنح إذ ذاك إلى الحقيقة طمعًا في فائدة أو رهبة من شيء، وإنّما يجنح إليها ويتواقع عليها لأنّه نشأ على ألا يخدع نفسه ولا غيره مهما كلفه ذلك. تراه يضحّي بسعادته وبالبشريّة في سبيل الحقيقة، هذه الحقيقة المقدّسة التي راح المسيحيّ يسمّيها إلها. وممّا لا ريب فيه أنّ ناشد الحقيقة يضع إيمانه في وجود غير هذا الوجود، وحياة غير هذه الحياة. فماذا تراه يفعل في بعد انصرافه عنه؟ هل يجد غير الجحود به؟ ولكن رويدًا! أريد أن أقول: «إنّ اعتقادنا العلمي مبني على اعتقادنا النّظري، وإننا نحن مفكري اليوم، الجاحدين الناكرين، نستمدّ النار التي تحرضنا وتثيرنا من المجمرة التي أضرمتها نار العقائد كثيرًا، ومن ذلك الإيمان المسيحي الذي شابه الإيمان الافلاطوني القائل بأنّ الله هو الحقيقة».

وأنّ الحقيقة الجيل الحاضر لم يجرؤ على أن يشك في القيم الحالية الموروثة، لم يجرؤ على القول: ما قيمة الحقيقة وما قيمة ذلك الأمر المطلق للفضيلة التي تأمرنا بسلوك طريق الحقيقة؟ إنّه وقف مكتوف اليدين ازاء مسألة الحقيقة والفضيلة، إنه لم يقل لماذا كقوّة عمياء، غير عاقلة، لا تعبأ بالخير ولا بالشّر فيها قوّة الخصب والتوليد، تنجب دائمًا مخلوقات جديدة لتضحّي بها لغايات لا معنى لها، ولا عاطفة في صدرها. وإذا كانت هذه حالتها فلماذا كتب الإنسان على نفسه التّضحية بها في سبيل مثل هذه الالوهية؟ يرى نيتشه أنّ الرّغبة في الحقيقة مثلها مثل الصّبغة العصريّة لصرامة التنسك والزّهد التي دفعت الإنسان إلى أن يضحّي – في سبيل الله – بكلّ ما تملك يداه، فكان الإنسان يقرب له الضّحايا البشريّة، يضحّي

بأوّل غلام يأتيه؛ حتّى إذا جاء العهد المسيحي أصبح الزّاهد يضحّي للإله بـكلّ غرائـزه وميولـه الطّبيعيّة. والآن مــاذا يملك عليـه ليضحي به؟ ألم ينتـه دور التّضحيـة له بكلّ عزيز؟ أليس الأجدر الآن تضحية الاله نفسـه وعبادة الحجر والمبهم والثقل والحظ والعدم إمعانًا في مجافاته؟ وهكذا تجد رسـول المعرفة الذي لم يهو في مهواة الشّـك، والمؤمـن بالحقيقة، والجريء على خلق مثل أعلى، والشـديد إيمانه بالعقل السّـامي والفضيلة، تجده. إذا نزعـت رداءه زاهدًا ينكر الوجود، ومتشـائمًا يفرّ من الحيـاة، لأنّه يأبى أن يستسـلم إلى الوهـم، إلى الكذب اللازم للحياة؛ إنّه كالمسـيحي يعمل على أن يقذف بالإنسانيّة في هاوية العدم.

الفصل الثامن:

الناحية الايجابيّة من مذهب نيتشه

السوبرمان أو الإنسان الأعلى:

إنّ أوروبا الحاضرة قد انسلّ إليها الدّاء، ترى فيها حيث نظرت مظاهر العلّة والانحطاط. فكأنّ نصبًا بالغًا حلّ على الإنسان فكبّل قواه وأضوى عزمـه، وهـو بعـد أن قطع سـبيله مـن دودة أرضيّة إلى قرد، ومـن قرد إلى إنسـان، أصبح يجنح في هذه السّـاعة إلى راحة بعد هذا التّطوّر الذي شقي فيـه. لا يحفل إذا كانت الرّاحة في الوقـوف أو في الموت، وهنالك مذاهب كثـيرة تتعلـق بأطراف ثوبه تغريـه بعوامل جميلة وآفاق مطـرّزة. هذا يعده بالمساواة المطلقة، وهذا يعده بحياة ما أجمل أفقهـا! المذهب الدّيموقراطي مذهـب منحط في الجماعـات ومذهـب ديانة الألم هو مذهب الضّعفاء من أنفسـهم هو وأولئك الشّـكوكيّون النّاقمون المارقـون الذين ألفوا ومثوى لهم عند زرداشت، هم منحطون يتألّمون من وجودهم، ويكادون يختنقون سـأمًا واحتقارًا لها كلما وقعت أنظارهم على الإنسـان الحاضر. أليس هذا الإنسان المتشائم الالهي الذي ينطق بمواعظ الموت قائلا: «كلّ شيء باطل الاباطيل، لا شيء يجدي! السّعي باطل». (لا جزائر سعيدة وراء المحيط). هنالك متشـائمون كثيرون أوتوا إلى كهف زرداشت، منهم الملكان اللذان هجـرا مملكتهـا لأنّهـما لم يخلقـا أوّل الرّجـال، والآن يريـدان ألا يأمرا ولا ينهيـا أحدًا. وهنالك العـالم الذي يعكس صور بحياتـه ابتغاء أن يدرس دماغ علقة، وهنالك السّـاحر المشـعوذ الذي يعبث كثيرًا بحقائق الأشياء ويخـدع كلّ النّـاس دون أن تجوز عليه خدعة ثمّ يتحـرّى وقلبه مفعم عن مجد مشروع صحيح. وهنالك «البابا الأخير» ومن لم يستطع أن يجد لنفسه

عـزاء عن موت الاله. وهنالك أقبح الرّجـال، قاتل الاله، لأنّ الاله خنق اشفاقه على بؤس الناس وشقائهم.

هنالـك السّـائل الذي مقت الإنسـان المتمدّن، يتحـرّى ازاء قطعان البقـر السّـارحة في المـروج، يتحرّى عن السّـعادة. وهنالك الشّـكوكي الـذي قذف به جموح عقله إلى اضـاعة نفسـه، فضـل وغوى وانطلق - بدون أمل - يسبح في أرجاء الوجود. كلّ هؤلاء يئنون من داء عميق يحز في قلوبهم حزًّا، فهم يطوفون في الآفاق وقد أخذ القلق منهم كلّ مأخذ، فالنّاس وكلّ ما يؤمن به النّاس من السـعادة لا يزيدهم إلاّ سـأمًـا. فهم أمسوا ولا إيهان لهم بكلّ الرّموز التي يقدّس الشّعب الفاظها ومعانيها. فلا ما وصلت إليه المادة بمغنيهم نفعًا، ولا الإيمـان بالمثل إلا على يغمر قلوبهم، فماذا يجب على الإنسانيّة إذا أمام هذه الهاوية؟ فهل تقف مشيهـا وتطلب نفي الحياة وتنشـد العدمية؟ يجيب نيتشـه: «لا! لأنّ الانحطاط لا يـؤول إلى العدم، بل قد يكون الانحطاط بشـائر حياة جديدة وعافية قويّة، وإنّ ممّا لا ريب فيه أنه لا يمكن الرّجوع بالإنسانيّة إلى الوراء. يجب الإقدام، الإقدام إلى الأمـام... تقدّموا رويدًا رويدًا في الانحطاط!» وكما أنّ أوراق الأشـجار تصفـر في الخريـف وتتناثر عـلى الحضيض، كذلك الانحطاط قد يكون طليعة سـلالة جديدة، والإنسانيّة تهبّ باحتضارها حياة سامية.

إنّ الإنسـانيّة تتمخّـض وتتـألّم من أوجـاع الولادة، ولذلـك لم يحمل زراداشـت تعاسـة الرّجـال السّـامين إذ يعتقد بأنّ الإنسـان ينبغـي له أن

يتألم كثيرًا ليستطيع الوثوب على القمم العالية. إنّ شقاء الرّجال السّامين وسأمهم من الناس ومن أنفسهم ضروريان ليصرفاهم إلى المواطن العالية وليزيداهم جرأة واقدامًا على الوثوب. وإذا كان هؤلاء الرّجال السّامون هم بأنفسهم نماذج ناقصة للإنسانيّة فما هم ذلك؟ يجب أن يكون هنالك انحطاط ونقص حتّى يجيء النّموذج كاملا من كل وجه أنّ الإنسان السّامي هو كالإناء، يتهيّأ فيه مستقبل لهذا الإنسانيّة، وفيه تتآلف وتتجاذب وتعمل كلّ الجذور التي ستظهر يومًا لمعانقة أشعّة الشّمس. على أنّ أكثر من إناء واحد ووعاء واحد بين هذه الاوعية سيتصدّع وسيتحطّم! ولكن ما هم ذلك؟ إذا ساءت ولادة فرد فهل ساءت الإنسانيّة كلها؟ وإذا ساءت ولادة الإنسانية كلها فما هم ذلك؟

إنّ الإنسان خاضع التّشبيه الذي فرضه نيتشه: «إنّ الإنسان هو حبل ممدود بين الحيوان والسوبرمان؛ ليس الإنسان بغاية، إنّما الإنسان مجاز وممر». وليفن الإنسان في سبيل حياة السّوبرمان، يقول زراداشت الحاشد حوله: «إني أعلمكم السّوبرمان؛ الإنسان يجب أن يفوق الإنسان! ماذا فعلتم لتفوقوا الإنسان؟» كل الكائنات سارت في طريق الابداع إلى ما هو أسمى، وانتم يا بني الإنسان شئتم أن تكونوا من الموجة جزرها لا مدّها بل آثرتم العودة إلى الإنسانيّة على السّمو فوق الإنسانيّة.

ما الفرد في عين الإنسان؟ إنّه لخزي وعار. وهذا ما يجب أن يكون الإنسان في عين السّوبرمان خزي وعار، إنني أعلمكم السوبرمان إنه هو ابن الارض، فلتقل ارادتكم أجل، ليكن السوبرمان ابن الأرض».

ومن هو السوبرمان؟ وكيف يستطيع الإنسان أن يكونه؟ يمكننا تحديد السّوبرمان بأنّه هو الإنسان الذي يصرف عن نفسه كلّ التقاليد الموروثة من مذاهب وشرائع سارية في جسد أوروبا، يصرفها عن نفسه ليعود إلى تقاليد وضعها رجال نبلاء وأسياد خلقوا بأنفسهم هذه القيم ولم يقتبسوها من غير أنفسهم. وليس معنى ذلك أن نعود بالإنسان إلى الوراء-إلى عصر الوحشية - وإنما نريد من الإنسان أن يبقى محتفظًا بمعارفه وبتجاربه التي شقي فيها دهورًا طويلة. ولكنه يجب عليه أن يحطّم مجموعة التقاليد والشّرائع التي تعوق سيره وتحول بينه وبين التقدم أن هذا الإنسان بذهابه من الوجود يفتح الطّريق للسوبر مان . وما أشبه هذا الاجتياز بالحركة التي تولد الرّجل الزّاهد عند «شوبنهور!» يعتقد المتشائم الكبير بأنّ الالم قد يقود الإنسان إلى الانعتاق من ارادته الشّخصيّة، ويسير به إلى الانتحار في النّهاية. ولكن هذا لا يغني وحده في نقله، وإنّما لا ينبغي له إذا أراد الخلاص أن يقنع بالتنازل عن حياته الخاصّة التي يحرزها، بل أن يتنازل عن الحياة عامّة، وبهذا الثمن يستطيع أن يحس بالهدوء. أمّا عند نيتشه فإنّ الألم هو الواخز الذي يخز الإنسان فيقوده إلى السّلام.

إنّ الإنسان يتألم من كلّ شيء ذاتي، فيدرك السّآمة الحادّة الفاشية في نفسه، وهذه التي تسوقه إلى طلب الزّهد والتشاؤم. وهذه هي حالة الرّجال السّامين الذين جمع بينهم زرداشت في كهفه. ولكنّ النبي يعظهم قائلا لهم: «إنكم لم تبلغوا في الألم الدّرجة التي أريدها، لأنّكم ما زلتم تتألمون من حالتكم ومـّا أنتم عليه أنكم لم تتألّموا من حالة الإنسان الحاضر!» فإذا بلغ الإنسان هذه الدّرجة البالغة من الشّقاء والسّأم توارى

وأباد نفسه تاركًا الأرض للسّوبرمان. إنّ التشاؤم الحادّ العنيف هو الذي سيولّد التفاؤل الظّافر.

هذه هي الميّزات التي يراها نيتشه تميّز السّوبرمان من الإنسان؛ يرى أنّ فضيلة الإنسان فضيلة تحمل إلى الناس جميعهم بدون فرق ولا استثناء، بينما يرى أنّ فضيلة السّوبرمان لا تعني ألا فريقًا منتخبًا ضئيلا ساميًا. ألا ترى أوروبا اليوم جميعها تؤمن بديموقراطية تساوي بين طبقات الناس مهما اختلفت أصولاً وفروعًا؟ ونيتشه لا يرى في هذه الديموقراطية شيئًا طبيعيًّا، هو يؤمن «باللامادة» ويريد أن يخلق طبقة أرستقراطية من أنواع محدودة، لكلّ نوع تعاليمه واعماله وواجباته المكتوبة عليه، وأسفل هذه الأنواع هو مجموع الفئات المتوسّطة التي يدور بأيديها دولاب المجتمع. فالنّقش والتّجارة والصّناعة والعلم والفن تحتاج إلى عمّال يخدمون برضاهم هذه الصّناعات، يطيعون مختارين ويعملون مريدين. هؤلاء هم عبيد لأنهم أسمى منهم وحق لهم أن تكون منهم تتألف وأن ينفذون ارادة من هم الطّاعة وأن يحتملوا من الألم كثيرًا لأنّ الحقيقة قاسية. على أنّ هؤلاء يجب أن تضمن لهم أسباب حياتهم فيكونوا أكثر هناء واطمئنانًا من رؤسائهم، لا شغل لهم إلا أن يواصلوا دورة الحياة.

أمّا الإيمان الدّيني عندهم فهو نعمة لا تثمن، لأنّه يذهب كأشعّة الشّمس فاقة وجودهم المظلم، يعلمهم القناعة والسّكينة ويجعل واجبا عليهم احتمال إرادة غيرهم. وهو الذي يبثّ في ارواحهم هذا الوهم الجميل القائل بأنّ هنالك نظامًا للأشياء، وأنّهم هم أنفسهم لهم مكان

نافع في نظام الكائنات والأشـيـاء. هؤلاء يقول لهم زرداشت: «لكم لكم العبوديّـة والإيـمان!» وفوق هذا الفريق فريق المديريـن وحارسي الشّريعة والذائديـن عن النّظام والبلاد والمقاتلين وأمير البلاد، وأنّ هؤلاء يدبّرون الأمر ويسوسـون الملك بسـلطتهم. إنّ هؤلاء هم الذيـن تخضع لهم إرادة العبيد حين يريدون أمّا الفريق الأوّل فهو فريق الأسياد والعقلاء وخالقي «القيـم الاجتماعية» هؤلاء يجـب أن ينفذ تأثيرهم في قلب المجتمع. هؤلاء يجـب أن يهبطـوا إلى الأرض، ينزلـون فيهـا بين النـاس منزلـة الاله الذي يقدّسـه النّصـارى، هـؤلاء هـم السّـادة ولهـم وجدهم صنعت فضيلة «السـوبرمان» وهذه الفضيلة لا تتميّز من غيرها بأنّها فضيلة ارسـتقراطية فحسب، ولكنّها تخالفها في المثل الأعلى الذي ضربته.

أمّـا الإنسـان الفاضـل في الشّريعـة المسـيحيّة أو شريعـة الزّهـاد فهو الـذي يخضع حياته لمثـل أعلى، ويضحّـي بميوله ورغائبه في سـبيل عبادة الخير والحق. أمّا العاقل في شريعة نيتشـه فهو غير ذلك. العاقل هو خالق «القيم» وليسـت مهنته إلا خلقها شيء في الطّبيعة له قيمة بنفسـه. إنّ عـالم واحـدة لا لهـا ولا غاية إلا المعنـى أو الغاية التي نراها نحـن فيها ونعطيها إياها، الفيلسـوف الحقيقي هو الرّجل الذي ينطوي على شـخصيـّة قادرة عـلى خلـق الوجـود، ويبعـث في النّـاس الرّغبة ويسـتهويهم هو الشّـاعر العبقـري الـذي تتألف في نفسـه «القيم الاجتماعية» التـي يؤمن بها رجال عصر! هو مفكّر في الاشـياء، لكنّ تفكيره ليس إلا الشّريعة السّـامية التي تهتز لها أمم! يبدع بحرّيّة مـا يشـاء مسـتقل الفكر، سائمًا من الخير والشر، مـن الحقيقة وغير الحقيقة، هو يبـدع حقيقته، ويخلق شريعته وفضيلته. إنّه

رجـل مجرّب لا يفتأ يتحرّى عن صور لعـوالم جديدة، تراه يضحّي بحياته وبسـعادته، ويفادي بحياة الآخرين الذين يجرون في مضماره وبسـعادتهم دون أن يتزعزع. إنّـه لاعب جريء يتحدّى الحظ، لا يحفل إذا كانت لعبته لعبة الحياة أو الموت. إنّ العاقل عند نيتشه ليس بذي الرّوح الهادئ المسالم. هو من لا يعد الناس بالسّـلام وبالفرح الهـادئ باقتطاف ثمرات عملهم، ولكنّه يدفعهم إلى الحرب يلمع بين عيونهم الرّجاء بالنّصر والأمل بالظفر.

يقول زراداشـت: «أنّكم سـتتحرّون عن أعدائكم، وإنكم ستقاتلون وستحاربون من أجل فكرتكم، فإذا غلبت فكرتكم فليدفعكم اخلاصكم إلى السّرور بهزيمتها. إنكم تحاربون السّـلم كوسيلة لحروب جديدة، على أنّ السّلم الصّغير هو خير من السّلم الكبير. أنا لا أنصح لكم بالعمل، ولا أنصح لكم بالسّلم، ولكن أوصيكم بالظفر ليكن عملكم حربًا وسلمكم ظفرًا».

يقولـون: «إنّ السّـبب الشّريف يقـدّس الحرب. وأنا أقـول لكم: «إنّ الحـرب الشّريفـة هـي التي تقدّس كل سـبب. يجب أن لا يكـون لكم من الأعـداء إلا المبغضـون لا الحقيرون، وإذ ذاك تكونـون أولي زهو وكبرياء بأعدائكم، حتّى ليغدو ظفرهم عليكم ظفرًا لكم».

إنّ القتال عند نيتشه هو خير سبب يعمل على التّقدّم، لأنّه يرى مواضع الضّعـف ومواضع القوّة. يـرى الصّحة والمرض في المادّة والاخلاق، وقد يكـون القتـال تجربـة خطرة يريـده العاقـل ليزيـد في حيوية الحيـاة ويزيد آفاقهـا سـعة وليدرك قيمة فكرة مـا وقدرتها على الاحاطـة بمعاني الحياة.

الحرب نعمة حسنة في ذاتها وتنبأ نيتشه بأنّ أوروبا ستدخل في عصر قتال تتطاحن فيه شعوبها في سبيل سيادة العالم. وبينما كانت القيم الاجتماعية الأولى تضع الشّفقة في رأس هذه القيم، كان زراداشت يعلم رفاقه أنّ الارادة هي الفضيلة العليا الفضيلة العليا «هذه هي الشريعة الجديدة التي أوصيكم بها، كونوا قساة أشدّاء!» إذ يجب في على المبدع أن يكون قاسيًا عنيفًا إذا أراد أن يخضع الحظ، أو أراد أن يوحي بتعاليم جديدة. إنّ الشّفقة ليست عنده بفضيلة، ولكنها خطر من أكبر الاخطار التي تلاقيه، ألم يسمع «زراداشت» حول كهفه أصوات اليأس يردّدها الرّجال الذين يدعونه: «تعال! تعال! قد حان الوقت». فلو أنّ الشّفقة عليهم استهوته إليهم لكتبت عليه الغلبة، إنه يحتاج إلى قوّة قاسية تصرف عنه تأثير هذا الدّعاء الباكي. بينما كان زرداشت يغادر بيته لاحقًا اليائسين الذين يجأرون له، نزل مكانًا موحشًا خيّل إليه أنّه مدينة الموتى.

هنالك الصّخور البارزة السّوداء، والشّماريخ الحمراء، حيث لا تنبت عشبة ولا ينجم كوكب ولا يزقزق عصفور. هذا هو واد ينفر منه الحيوان، لا يأوي إليه إلا الافاعي العظيمة الزّرقاء، تأتيه في كهولتها لتعانق الموت فيه. في هذا المكان المروّع أبصر «زرداشت» هيكل إنسان قبيح، فلم يشأ أن يتأمله، وهمّ بأن يركض ما استطاع فرارًا من هذا المسخ. ولكنّ صوتًا أهاب به كأنّه غرغرة محتضر أو بقيّة ماء في منحدر.

«زراداشت، زراداشت! نبئني بسرّي! ما الانتقام من الشّاهد؟» وفجأة استولت على زراداشت شفقة غريبة، ولكنّه سرعان ما استعاد قسوته

وصرامتـه فأجابـه: «أنا أعرفك.. أنت قاتل الالـه؛ دعني أسر في طريقي! أنـت لم تحتمـل من كان يـراك ويطلع عليك في كل ارتعاشـك وشـناعتك واشـمئزازك أنت يا أقبح الرّجال، فأخذت ثأرك من هذا الشّاهد». خرج زرداشـت ظافـرًا من هـذه التّجربة التي هلك فيها الالـه، إنّ إله المحبّة قد مـات، وقد خنقته شـفقته باطلاعه على كلّ نقائص الإنسـانيّة وشـناعتها الخفيّة، إنّ شفقته لا تعرف حدًّا. إنه وطـأ الاماكن الأكثر عمقًا والأسحق بعـدًا من النفوس البشريّة ولهذا مات لأنّ الإنسـان لم يعد بقادر أن يحتمل شاهدًا يقظ العين على خزيـه وعيوبه. أحسّ زرداشت بموجة الحياة تغمر نفســه ازاء هذا المشـهد، فأغمض من طرفه وهمّ بأن يتابع سـبيله، معتقدًا بأنّ متابعته للطّريق أجدى عليه من أن يهدر أيّام عمره في سـبيل الجلوس إلى جسـد هـامد لا ينفع فيـه دواء. وفي صنعه هذا لم ينج من الموت وحده فحسـب؛ بل اكتسب نجاته حبّ هذا الإنسـان الكريه أمّا الإنسان الكريه الذي كان يبغض الاله والرّحماء فإنه انحنى خضوعًا ازاء صرامة زرداشت وقبل أن يكون أحد الطارقين باب مثواه.

لا ينبغي للعاقل أن يكون قاسـيًا على نفسـه فحسـب، ليكن قاسيًا على الآخرين ايضًا لا يحفل بهدوء ولا بسلام؛ هو يدرك ان الانسانية لا تنشط نحـو غاية معينـة معلومة؛ ولكنه يرى كل شيء في اسـتحالة وتطور، يرى من واجب الحياة نفسها ان تعمل على ان تفوق نفسها، ويدرك ان الانسان ليـس من حقه ان يعلل نفسـه بأنه بلغ المرفأ سـالمًا. ليكن كل سـلام عنده ذريعـة لحرب جديـدة! ولتكـن حياته طافحـة بالحوادث العظـام! هو لا يتحرّى عن السّـعادة ولا يجهـل أنّ الفرح والحزن همــا توأمان متقارنان،

وباستطاعة الإنسان أن يجوز الحياة بدون فرح كبير يعروه أو شقاء كبير يغزوه، على أن ينقص من قوّة حيويّته، أمّا الذي يريد أن يتذوّق الأفراح الكبيرة فمن واجبه أن يعرف الأحزان الكبيرة، إذ كل ارتجاج في ناحية يقابله ارتجاج في ناحية أخرى. أمّا خالق القيم المؤمن بالحياة، من يريد الحياة عنيفة قويّة ما شاءت القوّة، فهو يريد أن تكون الارتجاجات واسعة حول نقطة الموازنة. يريد أن يعرف القمم العالية للسّعادة والشّقاء والانتصارات المسكرة والهزائم الشّنيعة. يجب عليه أن يمشي في وقت واحد إلى النّصر وإلى الاندثار. وزرداشت ذاته قد هلك حين بلغ «قمّة» وجوده. والسّوبرمان هو في وقت واحد الظّفر اللامع والاندثار القوي للإنسان وبينما ينبغي للعاقل أن يكون قاسيًا على نفسه لا يلتوي ازاء الألم، ينبغي له كذلك أن يكون قاسيًا على الآخرين؛ هنالك مصائب وآلام يعد مخففها فاقدًا للإنسانيّة، وهنالك منحطون ناقصون، جاءوا الحياة اختلاسًا، فلا يجوز تأخير فنائهم!

يقول زرداشت: «في كل مكان ترنّ أصوات الذين يعظون بالموت، والأرض معتمة بالذين يجب أن يوعظوا بالموت، أو «بالحياة الأبديّة» حتّى يقلعوا عن الحياة سراعًا». وللمتشائمين والشكوكيين والمنحطّين الذين يئنون ويقولون «ما الحياة إلا شقاء» لهؤلاء يجب أن يقول العاقل إذًا ضعوا لحياتكم وآلامكم حدًّا تنتهي عنده حياتكم وآلامكم! ولتكن شريعتكم مبنيّة على هذه الكلمة والانتحار واجب، والانهزام من الحياة واجب، إذ لا ينبغي للأرض أن تغدو دارة آهلة بالمرضى والبائسين، حيث يفنى الإنسان الخالص الجوهر سأمًا وشفقة. إذا أردنا أن نستنقذ

السّلالات الآتية من مشاهد الفاقة والشّناعة فلنترك الموت ينزل بمن هو ناضج للموت ولتكن فينا جرأة على ألا نصرف الساقطين عن السّقوط؛ لندفنهم ولنقذف بهم قذفًا حتّى يهووا سريعًا. ينبغي للعاقل أن يعرف كيف يتحمّل مشهد الألم عند الآخرين، وأن يعرف كيف «يؤلم» ويبث الألم دون أن تجد الشّفقة إلى قلبه سبيلاً، هذا هو ما تطلبه النّفس العظيمة.

يقول زراداشت: «أبالغ أنت شيئًا عظيمًا إذا لم تشعر بقوّتك وارادتك التي تعاقب بآلام كبيرة؟ إنّ عرفانك أن تتألم، هذا شيء حقير، فالنّساء الضّعيفات والعبيد يصبحون أسيادًا في فنّ الألم ولكنّ ثبات جأشك وعدم انحنائك أمام المصائب المؤلمة والصّيحات المؤلمة، هذان هما مظهر العظمة وسرها الصريح. ينبغي للعاقل أن يتّصف – في كلّ فصول حياته – بطهارة الطفل اللاعب، وصفاء الرّاقص الباسم، وهناء اللاعب المجدود، وفي مثل «الاستحالات الثلاث للرّوح» ينبّئ زرداشت بأنّ النّفس الإنسانيّة يجب أن تكون في استحالتها الأولى «بعيرًا» يحتمل بصبر أثقل الأعباء على ظهره، حتّى يستطيع أن يجمع الشّيء الكثير من التّجارب، ثمّ يستحيل البعير أسدًا يجأر قائلا «أنا أريد» ويتوعّد بمخالبه الحادّة كل من يحاول العبث بحرّيّته. يجب أن ينتصر على تنّين الشّريعة المكتوب على كلّ جزء من جسده بأحرف ملتهبة «يجب عليك!» ثمّ يسرع في نزع أثقال المثل الأعلى والحقيقة والخير عن ظهره ممّا كان يظنّ حمله خيرًا له. وأخيرًا، لكي يستطيع أن يدخل في دور الانتاج والابداع للقيم الجديدة، بعد تهديم القيم القديمة، يجب عليه أن يستحيل طفلا يلهو

ويلعب؛ (إنّ الطفل هو صفاء ونسيان، هو ابتداء، هو لعبة، هو دولاب يدور بنفسه حول نفسه). وهكذا يجب على النّفس التي تتوق إلى الصّعود فوق قمم الحكمة أن تتعلّم أن تلعب، وأن تفرح وتمرح طاهرة صافية، يجب أن تكون خفيفة غير واعية تنعتق من التّشاؤم والكآبة، ومن كلّ ما يجعل حياتها سحابة دكناء.

تقول الشّريعة القديمة: «ويل لمن يضحك!» وهذا القول عند زرداشت مبتكر قبيح. أمّا العاقل فيجب عليه أن يضحك الضّحكة الالهيّة، يجب أن يدنو من محجّته وغايته بخطوات خفيفة راقصة طائرة، لا بليدة نادمة؛ إنّه يتعزّى بالضّحك عن نقصه وبالرّقص والطّير أن يجوز مستنقعات الكآبة كالرّياح العاصفة. يجب على الإنسان أن يتعلّم الرّقص بنفسه والضّحك بنفسه وأن يرتفع وأن يسمو فوق نفسه، وأن تفوق نفسه نفسه على أجنحة الضّحك والرّقص.

يقول زرداشت: «إنّ اكليل الضّحك، هذا الاكليل من الورد، ضفرته أنا على رأسي وأنا قدمت ضحكتي المرحة. إنّ اكليل الضحك، هذا الاكليل من الورد، ألقي به إليكم يا رفاقي! أنا أقدّس الضّحك أيّها الرّجال السّامون فتعلموا أن تضحكوا».

إنّ من كان مثلي مدفوعًا بشوق غريب للتأمّل في مذهب التّشاؤم إلى أقصى حد، قد يكون من حيث لا يريد بذاته - فاتحًا عينه على المثل الأعلى للرّجل الحي الطروب المبتهج بالحياة الذي لم يتعلم أن يتحمّل الماضي والحاضر فحسب بل يعمل على احيائهما معًا مهما كان الماضي ومهما ذهب

المستقبل ولعلّ هذا التشاؤم المبطن عمقه بالتفاؤل هو الذي حدا نيتشه إلى أن يطلب الحياة لنفسه، ولهذه الرّواية الإنسانيّة الشّاملة الكاملة، وللوجود الذي يقوم بتمثيل هذه الرّواية.

وما هو في شـهر اغسطس من عام (1881) هبت في رأس نيتشه فكرة القول بالرّجعة الخالدة التي أصبحت فلسـفة السّـوبرمان، وما لبثت هذه الفكـرة أن ملكت عليه مشـاعره كلها، وقد تتلخّص هـذه الفكرة في هذه الكلمة: أنّ شحنة القوى التي تهيمن على العالم تتراءى لنا ثابتة سرمديّة؛ لا نقدر على أن نفترض لهـا نقصًا لأنّها لو كانت كذلك لوجب زوالها في هذا الدّهـر الطويل، ولا نقدر على أن نفترض لهـا نموًّا كالنّمو العضوي الذي نعرفه إذ لو كانت كذلك لافتقر نموها إلى غذاء هذا الغذاء أو هذه الوقود؟ وعـلى هذا لم يبق لدينا إلا الاعتقاد برسـوخ هذه القـوى وثباتها. لنفترض أنّ هـذه القـوى يتفاعل بعضهـا ببعض تبعًـا لقانون المصادفـة والتّدابير المتعاقبة وأنّ الترتيب اللاحق مؤثر في الترتيب السّـابق، فما عسـى يقوم في أزليّـة الزّمان؟ أرانا إذ ذاك مضطرين إلى القول بأنّ هذه القوى لم تبلغ بعد نقطة التّوازن ولن تبلغها أبدًا، إذ لو كان هذا الترتيب باستطاعته أن يظهر يومًـا مـا، لاسـتطاع إذا أن يظهر لتطـاول الزّمن الغابر. والعـالم عند ذلك يصبـح جامدًا سـاكنًا لا يتحرّك، لأنّ من المحـال أن تضلّ هذه القوى عن "نقطة التّوازن والاسـتواء» بعد أن أدركتها ووصلت إليها. فنحن إذا أمام القول بأنّ شحنة من القوى الثّابتة المعينة تولد - في هذه الآماد - تدابير لا تنبـتر وحالات لا تتناهى. وبما أنّ الزّمان لا نهاية له، وبما أنّ هذه الشّـحنة من القوى هي معيّنـة محدودة فسـوف تأتي لحظة - مهما كانت هذه القوى

عظيمـة ومهـما كانـت آثارها النّاشـئة عنها كثـيرة – نرى فيها هـذه اللعبة الطّبيعيّة غير العاقلة تولد وتدبيرًا، أو تهتدي إلى حالة تستقر عندها وتقف عليها. ولكنّ هذه الحالة أو هذا الانتقال سيجرّ وراءه سلسلة تامّة المتسبّبة عنـه حيـث أنّ الحركة العالميّـة تولد ذات الأشـيـاء وتمشي باسـتمرار على دائرة واسـعة. كلّ حيـاة خاصّة هي جزء من هذا الـدّور الكلّي وكلّ فرد قـد عـاش الحياة ذاتها مرّات لا تحصى وسيعيشـها إلى الأبـد. كلّ الحالات التـي يمكن للوجود أنّ يبلغها قـد بلغها في الماضي مرّات متعدّدة. قد كان مرّة، ومرّات عديدة سـيكون وسيعود؛ وكلّ القوى السّابقة متوزّعة اليوم توزّعها بالأمس.

أيّهـا الإنسـان، إنّ الحياة كلّها كمرملة ترش دائمـًا وتجمع دائمًا، وكلّ خليقـة مـن هذه الخلائـق لا تنفصل عـن الأخرى إلا بقدر تلـك اللحظة الطّويلـة الضّروريّـة لهـا حتّى تعـود تلك الـضّرورات التي كانت سـبب ولادتها، فتعود إلى الظّهور. والولادة حالة محلها في «الدور العالمي» وعند ذلـك سـتجد كلّ شـقاء وكلّ غبطـة، وكل صديق وكلّ عـدو، وكلّ أمل وكل ضلال، وكل غرسـة وكل شـعاعة من الشّمس، وكل نظام الأشياء. وهـذا الـدّور الذي أنت فيه مثله مثل الحبّة سـينبثق مـن جديد في كلّ دور من أدوار الوجود الإنسـاني، لكلّ إنسـان على الأغلب– ساعة تظهر فيهـا الفكرة القويّة القائلة «بالرّجعة الدّائمة» لسائر الأشياء. وهذه السّاعة التي تبلغها الإنسـانيّة هي ساعة «الهاجرة» وما إن بدا لنيتشه هذا المذهب حتّى سرى في روحـه، وغمـر فكره، وغلـب على قلبه؛ وقد عزم عـلى أن يغامر بعـشرة أعوام مـن عمره، يدرس التّاريخ الطّبيعي لكي يسـتطيع يبني هذا

على قواعد علميّة ثابتة، ولكنّه لاذ بالصّمت وأدرك خيبته في زعمه هذا. ولكنّ فكرة الرّجعة الدّائمة ظلت تتجاذب فكره، وظلّ يدور حولها. وهذه الفكرة كانت إحدى هبات «زرداشت» الكبرى إلى رجاله. وقد وضح جليًا تأثير هذه الغمّة التي غشيت نيتشه يوم أصبح يؤمن بهذه الرّجعة الدّائمة، ولن نستطيع أن نتخيّل حلاً لمسألة الوجود أظلم وأبهم من الحل، فالوجود لا يعني شيئًا. إنه وليد مقادير عمياء، ينتج من وراء مصادفاته الخالية من الشّعور قوى يمتزج بعضها ببعض، فيخلق بعض النّماذج بحسب المصادفات.

أمّا الحركة الشاملة للوجود فهي لا تقود جزءًا منها ولا قسمًا، وإنّما هي تدور حول نفسها بدون انقطاع في الدائرة نفسها، وهذه الحياة التي نحياها سنكرّرها إلى ما لانهاية، دون أن يكون هنالك رجاء في التّغيّر، وكلّ لحظة مشحونة بالكآبة والشّقاء والسّأم سنحياها مرّات لا تحصى. فهل بالامكان أن تتخيّل ما يضع هذا الافتراض في جماعات المنحطّين والمرضى والمتشائمين، وفي كلّ كفّة من ترجح كفة شقائهم على كفّة فرحهم؟ إنّ عند أغلب الناس كما يبدو – فكرة تشبه فكرة العودة الدّائمة، تظلّ وإن لم تكن مبنية على مبدأ معين، غير مؤذية ولا ضارة، لأنّها تبغي فكرة مجرّدة خارجة عن الادراك، لأنّ مخيّلتنا غير قادرة على اخراج هذه الفكرة إلى حيّز الحقيقة، ولأنّ المعارف التي يتلقّاها عقلنا لا تعين إلا قليلا من قوّتنا الحاسّة. ولكن نيتشه هو الذي يهب الحياة لتعاليمه، وهو يتفلسف بكلّ وجوده. وقد يشاهد أنّ الرّجعة الدّائمة أخذت تظهر في بعض اللحظات ككابوس شيطاني يملأ قلبك رعبًا ويوقف دقّات قلبك وقسوته على المنحطّين والاشقياء بدأت

الآن ترتدي غير رداء، وقد وضح ما يريد في صيحته هذه » ليموتوا سريعًا، ليقتلوا أنفسهم، أو ليقتلوا هؤلاء المنحطون!» من قبل أن يتمكّنوا من قياس أعـماق هاوية الآلام التي غرقوا فيها، وقبل أن يفقهوا معنى القدر الوحشي الـذي يقـضي عليهم بـأن يجرجـروا صلبانهم دون أمـل في نجـاة، وإذ ذاك تفهم إذا كانت الإنسـانيّة باسـتطاعتها أن تتحمّل هذا المذهب دون أن تزل سريعًـا في هاويـة البأس والخوف، أو أن تعتبر فكـرة العودة الدّائمة كابتلاء يهوي به من لا تصلح حيويتهم. لا بدّ من قوّة نفسـيّة خارقة لاحتمال فكرة العـودة صاحب هذه القوّة النفسـيّة يسـتطيع أن يقـول: «إذا لم يكن للحياة معنـى بذاتهـا فأنـا أعطيها معنى إنّـما أنا قطعة مـن الطبيعة تريـد أن تكون دائـمًا جديـدة، تسـعى بدون سـأم ولا نصب إلى مـا لا نهايـة في الحلقة ذاتها أنني سـأرتفع وأصعد حتى يتسـنّى لي أن أتأمّل كفنّان روعة الحياة المخصبة التـي لا تفهم. وسـأهتز طربًا إلى لعبـة هذه القوى التـي أنتجت وحصلت كثيرًا الآثار اللطيفة الرّائعـة، والتي ولدت الإنسـان وسـتلد السّـوبرمان . سـأتمنى بـكلّ قلبي وإيـماني من القوّة العمياء أن تبدع عملاً سـاطعًا يسـمو على وسـأحيا يراودني هذا الأمل وسأجعل وجودي كلّه وعاء لهذه الفكرة. أريـد أن الدّائـرة التـي تتحرّك فيها الحيـاة تحور اكليلا باهرًا زاهرًا سـأقضي حياتي فرحًا مرحًا، راجيًا أن يؤول دوري الذي أمثله إلى نتيجة حسنة. وإذا خسرت – في هذا الدّور -- فلي رجاء كبير فيمن يليني ويأتي بعدي.

وهكـذا لا يتلاشـى مـن الوجـود ضيـاء الحيـاة ولا يكفهـر. وهكذا الإنسـان المأخوذ بهذه الفكرة التي تزيده نشـوة، يصبح في حالة يبصر فيها هزائمه وانكسـاراته كفدية يسـيرة لأفراحه وانتصاراته، يجدهـا كالمنخس

الـذي يدفعـه دائـمًا إلى التّعـالي والتّسـامي، إلى تفوّقـه على نفسـه، وهكذا إذا عـاد إلى محاسـبة نفسـه أرجح من مقـدار ألمه وإذ ذاك يـرضى بكلّ حمية وشـوق فكرة الحياة الخالدة، وفكرة القبول بالحياة التي يكرّرها إلى الأبد. ولهذه النّتيجة تسامى أولئك الرّجـال السّامون الذين جمعهم زرداشت في مغارتـه، فحين عرض عليهـم تعاليمـه الجديدة وفضائلـه الجديدة، وفتح عيونهم على جمال الحياة وروعة الحياة، وحين شـفاهم من تشاؤمهم ورفع نفوسهم التي أوشكت أن تنحني تحت أثقال الكآبة والسّآمة، جمعهم تحت جنح الظلام أمام المغارة تحت قبّة السّماء.

جلـس الجميع صامتين متهيبين، كلهم في سـنّ الكهولة ولكنّ قلوبهم تفيض قوّة وحيـاة، وكلّ منهم راض بنفسـه عن نفسـه إذ غدا شيئًا صالحًا عـلى الأرض، وكان سـكون الليـل المفعم بـالأسرار يناجـي قلوبهم. عند ذلك تمت اعجوبة الاعاجيب، فالإنسـان الأكثـر قبحًا جلس ينفخ للمرّة الأخـيرة، وحـين دعـاه الكلام قـال: «هذا السّـؤال الذي خـرج من فمه طاهـرًا نقيًّـا عميقًا، وجميع من كانوا حوله يصغون إليه أحسّـوا أنّ قلوبهم تهتـز وتخفـق طربًا، قال: «هـا أنا لأوّل مـرّة - غدوت راضيًـا عن حياتي، جميلـة الحيـاة على الأرض. إنّ يومًـا واحدًا، إنّ عيدًا واحدًا مع زرداشـت علّماني أن أحبّ الأرض».

سـألت الموت: «هل هنالك الحياة؟ ألا، لتأت مرّة أخرى، يا اصحابي! أألا تريـدون أن تقولـوا للمـوت مثلي هـل هنالك الحياة؟ وفي سـبيل محبّة زرداشت لتكن مرّة أخرى».

أفلح إذ ذاك زرداشت؛ فإنّ الرّجل الأكثر قبحًا، والمسخ الذي قتل بغضه الاله، الذي يتمثّل فيه كلّ قبح وشر وسوء في الإنسانيّة، قد تلقى الآن جمال الحياة، وأدرك أنّ الألم هو فدية لا مندوحة عنها للسّعادة، فقال: «نعم للوجود، وبينما كان النّبي محاطًا بأتباعه يتذوّق خمرة هذا النّصر كان يتهادى ناقوس قديم ذو رنين حاد يعلن ببطء – مجيء نصف الليل أنّ نصف الليل هو السّاعة الواحدة التي يلتقي فيها النّهار الذي انتهى بالنّهار الذي سيبتدئ، حيث يصافح الموت الحياة». نصف الليل ساعة الصّمت الأكبر، حيث النّفس المتألّمة تتفتح لها التأملات والأسرار الخفيّة. وبينما كان الناقوس القديم، الرّسول الذي يقرع لأفراح الإنسانيّة واوجاعها، يعلن بدقّاته الاثنتي عشرة، التي يجوز فيها الموت إلى الحياة؛ نرى زرداشت يترك رجاله السّامين يلمحون الفكرة الكبرى للرّجعة الدّائمة غارقة في الالغاز كأنّها مزمور رمزي معطّر بالنّشوة الدّينيّة:

أ – ألا احترس أيّها الإنسان!

ب – ماذا يقول منتصف الليل العميق؟

ج – كنت أنام، كنت أنام.

د – ها أنا قد تيقّظت من حلم عميق.

هـ – الوجود هو عميق.

و – أعمق ممّا لم يفكر فيه النهار.

ز – وعميق شقاؤه.

ك - وفرحه أعمق من ألمه.

ل- الشّقاء يقول لك: «اهلك!».

م- ولكن كلّ فرح يبتغي الخلود.

ن - يبتغي الخلود، الخلود العميق.

الفصل الثامن:

تعليق المؤلّف
على فلسفة نيتشه

يتمتّع نيتشه بما لا يتمتّع به فيلسوف آخر، لأنّ تفكيره قد تناوله بالبحث ارباب الفلسفة وغير اربابها. وقد طغت «النيتشيّة» في الاعوام الأخيرة أيّ طغيان، فأمّا المعجبون به فهم يرون فيه المفكّر الفرد الصّارم العميق في جرمانيا الحديثة، له منزلة «دارون» في الاخلاق. وأمّا خصماؤه فهم لا يرون فيه إلا ولدًا مريضًا، له خطره ومبدؤه الفاسد وبينهما يقف الشّعب حائرًا، تراه من ناحية معجبًا بآثار هذا الجبّار ومظاهر تفكيره الغريب، ومحترسًا من ناحية ثانية من مفكّر ناقم على الاخلاق والتقاليد. والآن سنعمل على تبيان الأسس الرّئيسة التي ترتكز عليها فلسفة نيتشه، والأهمّيّة التي تنشأ عنها هدم النّقاد فلسفة نيتشه من وجهتين؛ في الوجهة الأولى هدم أبدوا اخطاءها العملية. وفي الوجهة الثّانية بينوا خطرها على الأخلاق.

إنّ نيتشه في الطّور الثّاني من حياته لم يكن يكتسب شيئًا ولم يكن باستطاعته أن يكون عالمًا، ولقد علمت رداءة صحّته التي تحول بينه وبين مواصلة جهوده في البحث، فهو قد بدأ حياته العلميّة بدراسة اللغات، ثمّ لم يلبث أن غادر هذا الميدان إلى غيره؛ وهو لم يكن في سائر العلوم إلا هاويًا، لا يسعى وراء ترقية هذا الفرع وذلك الفرع في العلوم، ولكنّه يريد من وراء ذلك أن يبدع مسائل جديدة، أو يكسو المسائل القديمة ثيابًا جديدة. فهو لا يؤثر في العلم نفسه ولكن في روح العالم، فإنّ اشتقاقاته التي استنبطها في دراساته للغات القديمة لم تكن لتلائم الحقيقة ولكن ذلك لم يكن ليحفل به، فهو يبغي أن يظهر طرق درس المسائل الاجتماعيّة بواسطة الدّراسة اللغويّة. فالقيمة الجوهرية لملحوظاته الخاصّة هي ثانويّة

عنده؛ سواء عنده حياتها ومماتها، فهو يكفيه فضلا أن ينفخ في نفوس هؤلاء الدّارسين روحًا جديدة ويفتح لهم آفاقًا جديدة.

لذلك نراه في آخر أدواره جد قلق، يسعى بواسطة الدّراسات اللغويّة إلى أن يستكشف الحياة الاجتماعيّة، والحضارة مستعينًا بدرسه ومقارنته بين اللغات وإذا شئنا أن نوضح بعض خطيئات نيتشه فلا ننس أنّ آثاره كلها «ذاتيّة» أي: «Subjective» والحقيقة – غير الذاتية – يراها نيتشه ضربًا من ضروب العاطفة الدّينيّة؛ وإننا لنطلب إلى العالم ألا يحترم إلا الحقيقة وأن يكون في بحثه عنها خاليًا عن الأهواء متجرّدًا عن شخصيّته – على قدر الإمكان وإننا لنعلم أنّ التّجرّد عن الذاتيّة في البحث عن الحقيقة هو خديعة، ونعتقد أنه ليس في مقدور أحد أن يتجرّد عن شخصيّته وينظر إلى الأشياء نظرة خالصة لا تجتلي إلا الأشياء. وبهذا ليست كل حقيقة ذاتيّة قبل كلّ شيء وجوهر الموضوع – في البحث العلمي لا يقف عند ما اغترفه الكاتب من حقيقة ولكنّه يقف على مقدار ما أودع في هذا أرانا نؤمن بالحقيقة المجرّدة، الحقيقة البارزة بحقيقتها خارج ادراكنا وحواسنا، وأرانا نؤمن بالمؤلّف ويزيد احترامنا له كلّما دنت افكاره بما ندعوه والحقيقة المتجرّدة عن الذّاتيّة». لنا الحرّيّة بأن نزن آثار نيتشه بهذا الميزان، ولكنّ نيتشه كان قبل كلّ شيء، يفتّش عن نفسه ويسعى وراء معرفة نفسه، ولقد كان هذه الحقيقة من ذاته ونحن على الرّغم من اهتمامه ضعيفًا بالاطلاع على الأشياء بحقائقها، وإنّما وقف اهتمامه كلّه وجهوده على ما يمثّل شخصيّته، فخلق من الأشياء خرافات كاذبة، وقد علم أنّه إنّما وصف نفسه حين كتب عن «شوبنهور وفاغنر» وأنّه حوّل الحقيقة إلى

خرافات جذّابة غريبة، ولأن تكون مظاهر لشخصيّة نيتشه أجمل وأحرى من تكون مظاهر تمثل حقيقة الوجود الخارجي، وبهذا يصبح سعينا وراء الحقائق التي عالجها والعمل على التوفيق بينها وبين الواقع.

هنالك تأثير معاصريه فيه، سواء أحسّ هو هذا التأثير لم يحسّه وفكرته التي جاء بها، إذا جرّدت من أثوابه الخاصّة، لم يحسه تبدو فكرة قديمة ليست بابنة ذاته. فكلّ الآراء التي عالجها من قوله بالذّاتيّة وعبادة النّفس والثّورة على قانون المساواة وعبادة الإنسانيّة قد سبقه إلى معالجتها أحد معاصريه[1] كما سبق «فلوبير» و«رينان» إلى الكتابة عن المذهب الارستقراطي. وقد وجد نيتشه في الكاتب «اوجين دوهرنك» عضدًا في محاربة التّشاؤم واتّحد مع «هارتمان» في النفور من الاجتماعيّين والفوضويين، واتّفق معه في القول باستحالة المساواة بين الناس، فقالا بفضيلة الحرب للمدنية، واتفقا على جعل الشّفقة مادّة غير صالحة للفضيلة، وكذلك نرى مذهب الرّجعة الدّائمة يتجلّى في كتاب «لبلانكي» وفي كتاب الدّكتور «لبون»، «الرجل والمجتمعات»، ولكنّا، وإن قارنا بين نيتشه وبين هؤلاء المعاصرين، نجد تباينًا شاسعًا مهما كانت الأفكار متقاربة متآلفة وعلّة هذا التباين شخصيّة نيتشه. ولقد نراه في بعض خطرات يتحامل على هؤلاء الأحلاف، فمقت من «رينان» روحه الكاهنة، ونعت هارتمان، بالمشعوذ. وليس نفوره هذا وليد حقد أو حسد، وإنّما هو وليد طبيعة تختلف جد خصومه، هذه الطّبيعة التي تؤمن بأنّ الشّخصيّة في الفيلسوف هي أكبر قيمة وأقل خطرًا من آثار

(1) ماكس في كتابه الواحد المجرد وصفاته.

الفيلسـوف. عـلى أنّ هذا لا ينبغـي أن يدفعنا إلى انـكار فضيلة كلّ حقيقة غير ذاتيّة اكرامًا لقوّة الشّـخصيّة عند نيتشـه وإذ ذاك بهم وإنني لمعتقد بأنّ المؤرّخ والفيلسوف يستطيعـان أن يجدا عند نيتشه حقائق جميلة بذاتها.

هنالـك آراؤه في «فاغنـر» يراها المـؤرّخ جديرة بالاعتبـار لأنها تبدي قيمـة الفنان العظيم. وهنالك آراء لنيتشـه يجدر بها أن تكون محل مناقشـة ومجادلـة، على أنّنـي أقـول: «إنّ عبقريّة نيتشـه لا تسـتقر إلا في «الذاتيّة»، والآن أراني أستشـهد بكلمـة «لبرانـدس» قالهـا في موضـع التّحدّث عن فيلسـوفنا حينها قـارن بينه وبين خصومه فلاسـفة الإنكليـز، قال: «حين نقبـل عليـه بعـد مغادرتنـا لفلاسـفة الإنكليز، نـرى عالمًا جديـدًا حولنا. فالإنكليز هم عقول متشـابهة في الصّـبر والجلد. غرضهم أن يتقنوا الشّيء جـزءًا جزءًا ثمّ يجمعوا هذه الأجـزاء الصّغيرة المتفرّقة ليؤلفوا منها شريعة وقانونًـا، يعملـون غير متأثريـن بذاتهم، وقيمـة فلسـفتهم تتوقّف على ما يعملون لا على ما ترقى إليه ذاتهم، أمّا نيتشه فهو على نقيض هذا المذهب، هو مثل «شـوبنهور» متنبئ فنان، تسـتهويك شـخصيّته قبل أن تستهويك آثاره، وإذا شـئنا ابداء قيمة آثاره فليس لنا أن صاحبه، نتلوها تلاوة كتاب علمي لا تتوقف روعته على روح نتلوها لنرى الرّوعة فيا بث هذا الرّجل من معارف قديمة بسطها وجديدة وضعها.

يـرى نيتشـه في معـرض كلامـه عـن شـوبنهور أنّ مذهـب المفكّر لا شـأن له، فكل فيلسـوف ممكن انخداعـه، إنّ ذلك الشيء الـذي هو أجل من مذهبه هو نفسـه. في كلّ فيلسـوف شيء لا نجده في فلسـفته فعلة كلّ

الفلسفات والمذاهب هي الإنسان، الإنسان العظيم. أمّا النظر إلى نيتشه من حيث الوجهة الأخلاقيّة فقد لامه النّقاد على غرائزه القاسية وأنانيّته الطّاغية، وقسوته البالغة على الضّعفاء. على أنّ له بعض آراء لو لم يسيء الناس فهمها لآلت إلى نتيجة أخلاقيّة حسنة، فلا يكفي المرء أن يكون فوضويًّا هدامًا طارحًا عن ظهره التقاليد ليحيا محققًا مذهب نيتشه. وليس نيتشه برفيق أولئك الذين يعبثون بالسّوبرمان، وهذا نبيه «زرداشت» كان يطلب إلى الذين يرغبون اتّباعه أن ينفذوا مذهبه بقسوة وشدّة. (هل أنت شريعة قويّة؟ هل أنت شريعة جديدة؟ هل أنت حركة أولى؟ هل أنت دولاب يدور حول نفسه؟).

وأسفاه! ما أكثر أولئك الذين يرديهم تعطشّهم إلى الصّعود! وأولئك الطامعين الذين يضطربون بيأس، أرني أنّك لست بواحد من هؤلاء الظامئين ولا الطّامعين! وأسفاه! هنالك كثير من الافكار العظيمة التي ليس شأنها إلا شأن النّسمة تهب ثمّ تتلاشى. إنك تقول أنك حر، ولكنّي أريد أن أعرف الفكرة التي تسيطر عليك، لا النير الذي رحت تهزه.

هل أنت حقًّا من أولئك الذين يجدر بهم أن يهزوا نيرًا؟ إنّ منهم من طرحوا كلّ ما منحتهم بعض القيم، بطرحهم ثوب العبوديّة والارهاق حيث كانوا يعيشون. ونيتشه ذاته يعلن أنّ مذهبه لا يحمله إلا إلى طائفة مختارة تستطيع حمله، والقيام بأعبائه، أمّا الجماعات الأخرى فليس عليها إلا الاذعان والطّاعة والحياة بإيمان. فلا يجدر بنا والحالة هذه أن نسفّه آراءه بحجة أنّ بعض الضّعفاء العاجزين، المنتفخة نفوسهم زهوًا وكبرًا،

قـد أخذوا ببعـض تعاليمه واقتبسـوا نتفًا مـن مذهبه ليحقّقـوا مطامعهم وليشـبعوا جوع أنفسـهم وأنانيتهم وليسـعوا إلى هدف العظمة. إنّ نيتشه هـو ذاتي قبـل كلّ شيء، ويكفـي اعتقـــاده هـذا أن يهيـج النّـاس عليه، فالإنسان الحاضر هو «ذاتي وغير ذاتي» في وقت معًا. يرى في الحالة الأولى نفع نفسـه وفي الحالة الثانية نفع غيره، ويتحرّى عن سـعادتهم كما يتحرّى عن سـعادته. على أنّ النزاع بين هاتين الحالتين هو نزاع عنيف، وقد تقوى في الإنسان حالة منهما دون أخرى بحسب ميوله القلقة التي تميل به إمّا إلى ذاتـه وإمـا إلى المجتمع . فبعضهـم تغلب فيه الذّاتيّة عـلى غيرها، فيضحّي بمصالح الغير في سبيل مصلحته، وبعضهم يضحّي بمصلحته عاملا على صيانة مصالح الغير. أمّـا نيتشـه فهو من القائلـين «بالذاتية» الذين يحبّون ذواتهم؛ ومذهب أهـل حضارة العصر إنما يتجلّى في اعتناق مذهب المحبّة الشّـاملة، وهـذا الاختلاف بين نيتشـه وبـين معاصريه يكفـي لأن يثير في خصومـه عداوة عميقـة وخصومة عنيفة على هذا الـذي لا يرى رأيهم في محبّة الخير مثلا أعلى.

عـلى أنّ هاتين الحالتين ليسـتا مـن يتخطاها الإنسـان ولا يتعداها، إذ لست أرى أحدًا مال بكليته إلى حالة وقطع كلّ اتّصاله بالأخرى. فهنالك درجات متفاوتة وهذه الدرجات قد تتغيّر وتتطوّر بحسب الزّمن والعصر والمحيط. على أننا سنحكم على فلسفة نيتشه الآن حكمًا عقليًّا واضحًا وأنّ فلسـفة نيتشـه هي مثال من أجمل الامثلة الذاتية الارستقراطية؛ مثال جميل حي منطقي، يحتوي على هدى لكلّ من يريدون أن يكوّنوا حياتهم ويجعلوا منهـا مثـالاً واحـدًا يتحدّون معـه، كما هو الامر في فلسـفـة «تولسـتوي»

المناقضة لفلسفة نيتشه. على أنّ الحل الذي أعطاه نيتشه للمسألة الاخلاقية يـتراءى لنا أنّ احتماله شـديد على الأنفس، في النّاحيـة التفكيريّة والنّاحية العمليّة.

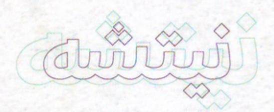
إنّ تنفيـذ مذهـب «السـوبرمان» ليفتقر إلى جهود قلّما توجد؛ ونيتشـه ذاتـه يعلن أنّ امثـال هؤلاء الأفراد الذين يجد فيهـم العبقرية لم يكونوا إلا وليدي المخيّلة والخيال. وهكذا يتراءى لنا أنّ نيتشـه لم يخلق ليكون زعيم مدرسة فلسفيّة حقيقيّة وحده بين الناس، كما كان في حالة تفكيره وتأمله؛ تـاركًا وراءه تأثـيرًا كبـيرًا ينمّـي في روح الفـرد وروح الشّـعب «الأفكار الذاتيـة» وهذا التأثير يتبـع خيره وشره الجبلة الخلقيّة التي تلتصق بالأفراد والشّـعوب. فهـو قد يعمل على تهديـم طبائع طغت فيهـا الأنانيّة على كلّ شيء حتّـى جاوزت حدها؛ وقد يعمل على رفع بعض الطبائع، يدرأ عنها كلّ آفة ويحميها من كلّ خطر من الأخلاق والدّيموقراطيّة والزّهد.

يبـدو لي أنّ عمل نيتشـه له أثر قوي في بيئـة كبيئتنا، ولا ريب في ذلك، فـإنّ مـا أراه في مظاهرنـا الاجتماعيّة لا يـدلّ على فيض في الحماسـة المادّيّة والخلقيّة. قليل من المفكرين الذين هم مستواه يعرفون أن يسوقوا الإنسان إلى معرفـة نفسـه والوقـوف ازاءها مجرّدًا، وقليل من أصحـاب جمهوريّة الفضيلـة من يمزّقـون في وضح النّهـار هذه الأغشـية الرّقيقة والاكاذيب الخفيفة التي تسـتر بهـا النّفس ضعفهـا وجبنها وذلّها وعجزهـا، وقليلون من علماء النّفس من وضح وإبان وأحسـن البيان عن الحقيقة الذّليلة التي ترتدي هذه الاثواب المزركشة، أثواب الشفقة ومحبّة القريب والزّهد.

إنّ نيتشه كالطّبيب الصّارم الذي لا تدخل قلبه الشّفقة، والعلاج الذي يحملـه إلى مرضـاه، علاج قاس خطر اسـتعماله، ولكنّه عـلاج يخلق العزم والقوّة، إنّه لا يعزي من يأتيه شـاكيًا، ولكنّه يترك الشّـاكين تسـيل الدّماء من جراحهم ليجعلهم أكثر قسـوة وأشـدّ احتمالاً للألم. فهو إمّا أن يشفي مرضاه شـفاء صحيحًا أو يقتلهم. قد يخشـاه النّاس للمرّة الأولى ويفرّون من مباضعه ويلقونه باحتراس ووجـل. يتسـاءلون: «أليس هذا الإنسـان شريـرًا جلادًا؟ يفرّون من طريقه ويختلفون إلى أطباء خفيفة، ليّنة كلماتهم، حلوة علاجاتهم، خالية تعاليمهم من الشّدّة والصّرامة، ولكن نيتشه يلوذ بـه فريق من المخلصين له ولأنفسـهم، يهوون صرامته، ويحبّون اسـتقامته وخلقـه كلـه. وفي اعتقـادي أنّ هـؤلاء لم يكونوا مخدوعـين بإعجابهم به واخلاصهـم لـه، وقد علموا أنّه - ليس عن صرامـة قلبه ولا معرفته للألم معرفـة خاطئة قـد غدا صارمًا قاسـيًا على الإنسـانيّة المتألّمـة، وحياته كلها مشـحونة بالحـوادث البالغـة، والمصائـب الكبيرة؛ وحظه الـسيء الفاجع قـضى عليه بأن يكون صادفًـا عن الاتّفاق على ضعف الإنسـانيّة وفاقتها. إنّهم ليقفون بخشـوع وجـلال ازاء المفكّر الجبّار الـذي لم يخضع للذّل ولم يلعـن الوجود، عـلى الرّغم من مرضه العضال، وظـلّ على غبطته ورضاه في الحالـة التـي كان يصارع فيهـا الموت والجنون دون أن ينفـذ إليه الوهن والضّعف، متمّمًا أنشـودته المؤثّرة في تمجيد الحياة الفتيّة الفيّاضة المخصبة، مناضلا حتّى النّهاية، الألم الذي غلب على عقله ولم يستطع أن يقهر إرادته الواعية».

وأسفاه! ما أكثر أولئك الذين يرديهم تعطشّهم إلى الصّعود! وأولئك الطامعين الذين يضطربون بيأس, أرني أنّك لست بواحد من هؤلاء الظامئين ولا الطّامعين! وأسفاه! هنالك كثير من الافكار العظيمة التي ليس شأنها إلا شأن النّسمة تهب ثمّ تتلاشى. إنك تقول أنك حر, ولكنّي أريد أن أعرف الفكرة التي تسيطر عليك, لا النير الذي رحت تهزه.

هل أنت حقًّا من أولئك الذين يجدر بهم أن يهزوا نيرًا؟ إنّ منهم من طرحوا كلّ ما منحتهم بعض القيم, بطرحهم ثوب العبوديّة والارهاق حيث كانوا يعيشون. ونيتشه ذاته يعلن أنّ مذهبه لا يحمله إلا إلى طائفة مختارة تستطيع حمله, والقيام بأعبائه, أمّا الجماعات الأخرى فليس عليها إلا الاذعان والطّاعة والحياة بإيمان. فلا يجدر بنا والحالة هذه أن نسفّه آراءه بحجة أنّ بعض الضّعفاء العاجزين, المنتفخة نفوسهم زهوًا وكبرًا, قد أخذوا ببعض تعاليمه واقتبسوا نتفًا من مذهبه ليحقّقوا مطامعهم وليشبعوا جوع أنفسهم وأنانيتهم وليسعوا إلى هدف العظمة. إنّ نيتشه هو ذاتي قبل كلّ شيء, ويكفي اعتقـــاده هذا أن يهيج النّاس عليه, فالإنسان الحاضر هو «ذاتي وغير ذاتي» في وقت معًا. يرى في الحالة الأولى نفع نفسه وفي الحالة الثانية نفع غيره, ويتحرّى عن سعادتهم كما يتحرّى عن سعادته. على أنّ النزاع بين هاتين الحالتين هو نزاع عنيف, وقد تقوى في الإنسان حالة منهما دون أخرى بحسب ميوله القلقة التي تميل به إمّا إلى ذاته وإما إلى المجتمع . فبعضهم تغلب فيه الذّاتيّة على غيرها, فيضحّي بمصالح الغير في سبيل مصلحته, وبعضهم يضحّي بمصلحته عاملا على صيانة مصالح الغير. أمّا نيتشه فهو من القائلين «بالذاتية» الذين يحبّون ذواتهم. ومذهب أهل حضارة العصر إنما يتجلّى في اعتناق مذهب المحبّة الشّاملة, وهذا الاختلاف بين نيتشه وبين معاصريه يكفي لأن يثير في خصومه عداوة عميقة وخصومة عنيفة على هذا الذي لا يرى رأيهم في محبّة الخير مثلا أعلى.



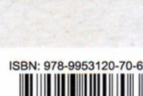
يعدّ «فردريك نيتشــه» مثل الفكرة الألمانيّــة الجبّارة في تاريخها الحديث كما كان «بســمارك» رجلها الحديدي في السّياسة. فهما، وإن اختلفت نوازعهما وتباينت خطوطهما، ما غرســا إلا بذور القوّة والارادة في شعب تلقّحت دماؤه وأفكاره مصل القوّة والارادة.

هنالك كلمة تسطّرها براعة الفلاسفة والنّقّاد، وتشغل مكان في العصــر الحديث. هذه الكلمة هي كلمــة «الانحطاط الاجتماعي» وفلاســفة الاجتمــاع لا يرون في هذا الانحطاط شــيئًا سياســيًّا ممكن اصلاح الفاســد فيه، أو اعوجاجًا ممكن تقويمه بل هو داء عضال تأصّل في جســم البشريّة، وجرى في لحمها ودمها، فهو لا يذهــب إلا بذهابها، ولا يتلاشــى إلا بانقراضها. من هؤلاء الغالين المسرفين في تشــاؤمهم «فردريك نيتشه» الذي نازل العالم كلّه وحــدهُ، وهدم العقائد والتقاليد مســتمدًّا من عقله وقلبه عقائد وتقاليد أسمى منها.



نستذكر الساندرو جيسبي انطونيو انستازيو فولتا هو هو عالم فيزياء إيطالي، رجع له الفضل في اختراع أول بطارية كهربائية، والتي تُعرف بالعمود الفلطائي، وكان قد اخترعها في العام 1799 ورفع تقريرا عن نتائج اختراعه في خطاب من جزلين لرئيس الجمعية الملكية في عام 1800. أثبت فولتا بهذا الاختراع أن الكهرباء يمكن أن تتولد كيميائيًا وهدم النظرية السائدة في وقته أن الكهرباء تتوّلد فقط بواسطة الكائنات الحية.

كما لُقبت وحدة الجهد الكهربائي بالفولت في نظام الوحدات الدولي تكريما له.


ISBN: 978-9953120-70-6



